

أصدرته منظمة اليونسكو عام 1996

عدد 96 - الأربعاء 2 آب (أغسطس) 2006

محمود شقير

صورة شاكيرا

قصص قصيرة

رسوم آمنة النصيري





الشريك الثقافي



المؤسسة الراعية

الذكرى العاشرة لإنطلاقة «كتاب في جريدة»
الذكرى الستين لتأسيس «اليونسكو»

في إطار احتفالات الذكرى الستين لتأسيس اليونسكو، والذكرى العاشرة لانطلاقة «كتاب في جريدة»، وبدعوة من النائب غسان تويني رئيس تحرير صحيفة النهار اللبنانية، أقيم في جريدة النهار احتفالٌ بحضور السيد كويشيرو ماتسورا مدير عام منظمة اليونسكو، والسيد طارق متري وزير الثقافة اللبناني، والسيد مروان حمادة وزير الاتصالات والآنسة نايلة جبران تويني، والدكتور أحمد الصياد نائب مدير عام اليونسكو للشؤون الخارجية والتعاون والدكتور عبد المنعم عثمان مدير مكتب اليونسكو الاقليمي في بيروت وعدد من الشخصيات الثقافية والإعلامية والتربوية،

ولأسباب خارجة عن إرادته، لم يتمكن من الحضور معالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر، المبعوث الخاص للمدير العام لليونسكو للتربية والديمقراطية والتسامح، راعي «كتاب في جريدة». وقد مثله في هذه المناسبة الشاعر شوقي عبدالأمير.

فيما يلي نص كلمة كل من المدير العام ومعالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر.

كلمة السيد كويشيرو ماتسورا:



السيد الوزير،

السيد المدير،

أصحاب السعادة،

السيدات والسادة،

إن التظاهرة التي تجمعنا هذا اليوم في مقر صحيفة «النهار» بمناسبة الذكرى الستين لإنشاء اليونسكو هي بالنسبة لي مصدرُ إرتياح كبير وعلى أكثرَ من صعيد.

أوّلاً أنها تقام في بيروت لتشّهد بالطبيعة التي أردت أن أعطيها لإحياء هذه الذكرى: أي أن يُحتفى بها خارج مقر اليونسكو وحتى خارج مواقع اليونسكو بالمعنى العريض للكلمة.

ولهذا أودّ أن أشكركم أيها السيد مدير صحيفة النهار لسماحكم بالقيام بهذه الذكرى في هذا الإطار.

إن مصدر ارتياحي الثاني هو أن هذا الاحتفال يقام حول كتاب. كيف يمكن في بلاد بيبلوس أن لا نشير إلى القيمة الجوهريّة للكتابة في العلاقات بين البشر ومن أجل بناء السلام؟ إن الكتاب الذي نحتفي به اليوم يجمع التأريخ الثقافي لليونسكو أي أنه يقع في قلب وجودنا وهو ما أطلقت عليه إسم »الشعلة الخفيّة».

يضم هذا الكتاب الذي طلبت من الفيلسوف روجيه بول دروا تحضيرَه مُنتخبات واسعةً من نُصوص واستشهادات من أرشيف اليونسكو تؤكد إستمراريةَ استلهام مُنظمتنا منذ تأسيسها وتعددية المشاكل التي واجهتها.

يتوجب علينا اليومَ أن نُحدد أين تقع الرهاناتُ وما هي التحدّيات. وعلينا، في خضم المهمة التي تقع على عاتقنا، أن نحدد الاسبقيات والميادين ذات الطابع الاستراتيجي.

بعد الانتهاء مباشرة من الحرب، شكلت المعركةُ الصارمةُ من أجل إجتثاث العنصرية محوراً كبيراً سمح لليونسكو بالمساهمة بشكل حاسم بالقيام بتحول جذري للأخلاقيات. تلى ذلك التخطيط للنظم التربوية لتفرض نفسها كرهان جوهري بحيث احتلت اليونسكو موقع الصدارة في هذا الميدان. كما أن بُروزَ مفهوم التراث المشترك للانسانية كرد فعل للمخاطر التي كانت تتهدد في سنوات السبعين معابد النوبة قد شكلت مساهمة أساسيّة لليونسكو من أجل رؤية جديدة للعالم بحيث أصبحَ قَرنُنا يُدركُ إلى أي مدى صارت هذه الرؤية حيوية من أجل مستقبل الإنسانية.

وأنا شخصياً إقترحت أن يكون التعليم للجميع والمياه وأخلاقيات العلوم والتكنولوجيا والتنوع الثقافي وبناء مجتمعات المعرفة القائمة على حرية إنتقال الأفكار، من أولى أسبقيات اليونسكو لعصرنا هذا وقد أقرّ المؤتمر العام هذا الاختيار.

إن النظرُ من بعيد إلى هذا الكتاب يُظهر أن اليونسكو قد نهجت على الدوام نوعيًن من المبادرات: الاستباقُ من جهة والأمانة للاستلهام الأساسي الثابت في رسالة اليونسكو والذي يهدف إلى «رفع حصون السلام في عقول البشر» من جهة أخرى.

هذه المبادئ تمنحني في الواقع السبب الثالث لإحساسي بالسعادة الكبيرة في هذا الاحتفال الذي يجمعنا حيث أنه يجري في مقر صحيفة يوميّة كبرى.

في الواقع إن أوّل المبادئ التي أقرها الميثاق التأسيسي هي «حريّة إنتقال الأفكار بالنص والصورة». وهو يشكل منطلقاً لكل المبادئ الأخرى وفي نفس الوقت التعبير الأسمى عن «المثال الديمقراطي للكرامة والمساواة وإحترام الكائن البشري».

إن حرية وتعددية الصحافة هما الشرطان الضروريان لممارسة حق الكرامة الذي يُؤمّنُ لكل شخص «حريّةُ البحث عن الحقيقة»، الأمر الذي يفترضُ توفّرَ التعدديةَ والمستوى الرفيع لمصادر المعلومات.

أودُّ في هذا الإطار أن أحيي وبكُلِّ حماس الصحفيين اللبنانيين اللذين قدّما حياتيهما وهما يمارسان عملهما الصحفي؛ سمير قصير وجبران تويني. لقد كانا كلاهما مناضلين شديدي المراس من أجل حرية التعبير والتفكير التي كم هي ضرورية من أجل تقدم الإنسانية. إعلموا أنني أشارك بكل مشاعري في الحداد الذي تكابدُه صحيفة «النهار» التي تعرضت مرّتين خلال شهور لضربة قاسية ومن خلالها لبنان بأكمله.

وأهنّئ نفسي بأن جائزة «اليونسكو غويرمو كانو» لحرية التعبير قد منحت هذه السنة إلى مواطنة لبنانية كبيرة؛ وهي الصحفيّة مي شدياق التي تعرّضت هي الأخرى لمحاولة إغتيال. سأمنحها رسمياً بعد بضعة أيام في سيريلانكا هذه الجائزة، ليتمكن هذا الامتياز الدولي من أن يحمل، باسم كل ضحايا الجرائم البشعة، شعلة الحرية الأساسية والحيوية لمستقبل الإنسانية.

السيد الوزير، السيد المدير

بعد إختيار منتخبات من هذا الكتاب «الانسانية في طور البناء» ونشرها في «كتاب في جريدة» وهو المشروع الذي قدّمت له اليونسكو دعمها منذ انطلاقته فإن الـ91 صحيفة المشاركة في برنامج عمله تكون قد نشرت صدى اليونسكو بين الملايين من القراء لتسهم عبر ذلك بأن تضع بين أيدي كل المواطنين والقراء ما نريد أن نقدّمه في الذكرى الستين ولهذا فأنا أشكرهم من كل قلبي.

واليوم فإن نشر الكتاب بكامله في اللغة العربية هو ما يمكن أن يحدث بفضل مبادرتكم أيّها السيد المدير إنطلاقاً من الترجمة التي تمّت تحت رعاية اليونسكو وبمبادرة منها. لقد كنت آمل بحرارة أن ينتقل هذا الكتاب الغني بالأفكار وبالمعلومات إلى أيدي قراء اللغة العربية كما هو الحال في اللغة الفرنسية والانكليزية. وهذا ما سيكون أمراً منجزاً خلال أشهر بفضل دعم مؤسسة «النهار» بالتنسيق مع مكتبنا في بيروت. إنني سعيد جداً وأشكر السيد شوقي عبدالأمير المندوب الدائم المساعد للعراق لدى اليونسكو الذي لم يدّخر جهداً لانجاز هذا المشروع بكامله والذي كانت فكرته منذ البداية.

يُعلّمنا هذا الكتاب أن الانسانية بجوهرها ما زالت في طور البناء وهي ليست منجزةً ولا متحققةً قط. ولذا فإن من واجبنا العمل من أجل ذلك باستمرار وأنه لشرف لليونسكو أن تشجع وتبعث الأمل في هذه المهمة.

أشكركم

كلمة الشيخ محمد بن عيسى الجابر

المبعوث الخاص للمدير العام لليونسكو للتربية والتسامح والديمقراطية راعي «كتاب في جريدة»:

السيّد مدير عام اليونسكو

السيد وزير الثقافة

السيد رئيس التحرير

إنّها مناسبةٌ تجمع عدَّة مُناسبات وكُلُّها مُحمّلةٌ بالرموز والدلالات الكبيرةْ،

فهي زيارةُ السيد كوَيشيرو ماتسًورا مُدير عام منظمةَ اليونسكوَ إلى بيروتَ عاصمة الثقافة العربيّة الدائمة،

وهي الذكرى الستّون لتأسيس اليونسكوَ الحضَن الدَولِيِّ الأرحب لبناء الإنسان والسَلامْ

وهي الذكرى العاشرةُ لإنطلاقةَ «كتاب في جريدة»، أكبرَ مشروع ثَقافيٍّ عربي مُشترك من بيروتَ المكافحة دائماً من أجل مُجتمع مُتحرّر تعدّدي وديمقراطي تتَعايشُ فيه كلُ أشكال الطيف الحَضاريِّ البشريِّ عرقيًّا ودينيًّا، تَحتَ سَقَف صحيفة «النَهار»، التي احتفلتْ هي الأخرى بالذكرى السبعَين لتأسيسَها قبلَ أعوام، منبر الكلمة الحرّة التي قدَّمتْ من أجلَه قبل بضَعة شهور شهيدين من أبنائها (جبران تويني وسمير قصير) الذين أفاضوا دماءَهم حبراً وكلمَات أكثرَ إشعاعاً وخُلوَداً،

وها هي مَنظمةُ اليَونسكو مُمثلةٌ بالسيد المدير العام تقدّم جائزة حرية الصحافة العالمية لهذا العام 2006 للصحفية التلفزيونية اللبنانية التي تُعرف اليوم بـ «الشهيدة الحيّة مي شدياق» لتُؤكّدَ كما في كُلِّ مرّة وقوفَها دائماً وأبداً في صَفِّ أحرار العالم من أجل بناء إنسانية أفضلَ سعياً وراءَ المبادئ السامية التي تحملُها اليونسكو، واستكمالاً للمسيرة الإنسانية الطوَيلة من أجل تربيَة جَيل قائمٍ على المعرفة والديمقراطية والتسامَح...

إن إجتمَاعاً كهذاَ لا يمكّن إلاً أن يكّونَ شُعلةً مُكتنزةً بالنور والعطاء والأمل...

وبهذه المناسبة فإنني أودُّ أن أُعبّرَ لكم عن سعادتي البالغَة بالسيرَ يداً بيد مع منظمة اليونسكو لدعم كُلِّ مشاريعها التنورية والإنسانية في مُجتمعنا العربي من مُحيطه إلى خَليجه وأنْ أضَعَ نفسَي في خَدمة المُثلَ الانسانية العُلياَ التي من أجَلها شُيّدت منظمةُ اليونسكو لأنَني أُؤمنُ بأن لهذه المَنظمة دوراً كبيراً بين ظَهرانينا وأننا اليومَ في كُلّ الدوَل العربيةِ بحاجةٍ إلى حُضورها ومشارَكتَها في جميع ميادين إختصاصهَا...

ومن أجلَ هذا سبقَ لي أنْ وَقّعتُ برُوتوَكولاً طموحاً مع السيد كويشيرو ماتسورا في 2002 من أجل تَطوير، تحديث وإصلاح النظام التَعليميِّ في الشرق الأوسط والذي بدأ فعلاً تنفيذَهُ بما يَسمحُ للنهوض بمشاريعَ تَنموية كُبرَى وتشَجيع ثقافَة السلام وبناء الديمقراطية بالإضافَة إلى التبنّي الكُلّي لمشروعِ اليونسكو الرائد والذي كَان يمرُّ بفترة عًصيبة «كتاب فَي جريدَة» وهو اليومَ يُدركُ سنَتَهُ العاشرةَ تَحتَ رعايتنا ودعمنا.

إنّ «كتاب في جريدة» هو الخيمةُ العربيَّةُ الكُبرى التي تَجمعُ القارئَ العربي في كُل مكان وقد أصبحَ اليوم بعدَ عشرة سنوات من تأسيسه صَرحاً ثقافياً في حاضرتنا العربيّة وجسراً لا بُدّ منهُ بين مبدعي الكلمة وقُرّائهَا، من أجلِ نشرِ المعرفة وبناءَ الإنسانَ العربي في عًصر حوار الحضارات والعَولمة.

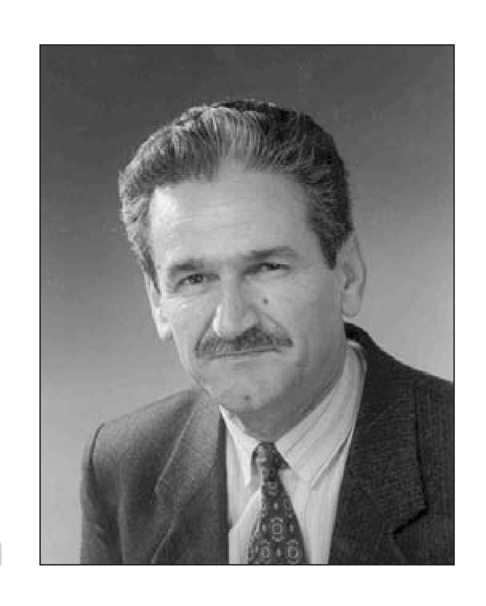
وأودُّ في الختام أن أقوَلَ مع السيَد المدير العام في كلمته بمناسبة الذكرى الستين لليونسكو:

«إنّ علينا أن نُركّزَ إهتمامَنا على الإلهام الأخلاقي لليونسَكو والحوار والتعاون وإرساء المعايير وتَناسُق تطورها وسُبل رقيِّها... من أجل إعادة استكشاف الشُعلة الخفيَة لليونسكو» فالإنسانية حقاًَ – كما هَو عنوانَ كتابنا – هي دائمَاً في طَور البناءَ وأن دورَ اليونسكو هوَ المشاركةُ فَي هذه المهمة الهائلة وإنه لَيشرّفني أن أُقدِّمَ مُساهمتَي المتواضعَة في دعمِ مَسيرتها النبيلَة هذه.



صورة شاكيرا... وقصص أخرى

محمود شقير



محمد مظلوم

مواليد القدس 1941

حاصل على ليسانس فلسفة واجتماع – جامعة دمشق 1965.

ابتدأ الكتابة سنة 1962 ونشر العديد من القصص القصيرة منذ أواسط الستينات.

نشر العديد من القصص في صحف فلسطينية وأردنية وعربية إضافة إلى العشرات من المقالات الأدبية والسياسية.

صدر له أكثر من عشرين كتاباً تراوحت بين القصة القصيرة والسيرة واليوميات وأدب الطفل، منها: خبز الآخرين 1975، طقوس للمرأة الشقية 1986، ظل آخر للمدينة – سيرة للمكان 1998، مرور خاطف 2002، صورة شاكيرا 2003، ابنة خالتي كوندوليزا 2004.

فيما كتب السيناريو لمجموعة من الأعمال التلفزيونية، إضافة على عدد من النصوص المسرحية.

ترجمت بعض أعماله القصصية إلى لغات عدة منها: الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والصينية.

حائز على جائزة محمود سيف الدين الإيراني للقصة القصيرة 1991.

مقيم حالياً في مدينة القدس متفرغاً للكتابة.

تمثل قصص محمود شقير مناسبة نموذجية لرصد هذا التحول في التعبير الذي طرأ على الأدب العربي من خلال مقاربة القضايا الكبيرة بموضوعات صغيرة، بعد أن تراجعت بشكل واضح تلك القضايا الكبيرة "المقزمة" تحت ضجيج اللغة التي لم تولد إلا الهزيمة.

أدب "ما بعد الهزيمة" أو الهزيمة المفتوحة على احتمالات تداعياتها اللاحقة، ينحو هذا المنحى المبتكر في مقاربة القضية من جانب آخر مختلف حد التناقض عن المألوف من المقاربات السابقة، بهجر أفق الشعارات وفضاء المُثُل الهلامي، نحو مداعبة القاع وما تحته بواقعية جارحة ومجروحة، إنها متعة الصياغة والمقاربة الممزوجة بمرارة الواقع.

وقصص محمود شقير المنشورة هنا تنشغل عميقاً في التفاعل مع ما تعكسه ثقافة الصورة، وما تتركه من ظلال قوية ذات غور نفسي في تكوين الشخصية المحلية من جانب، وترويج النموذج المصنوع في ميديا عارمة من جانب آخر، حتى تبدو نوعاً من الأساطير الجديدة، الأساطير اليومية الفاعلة في حيوات الناس أكثر من تلك الثاوية في الذاكرة المجروحة، أو المستبطنة في اللا وعي الجمعي.

تبدو عناوين قصص محمود شقير كافية وحدها لتلخيص نمط تلك الثقافة التي تعتمد الأساطير المصنوعة إعلامياً (صورة شاكيراً، مقعد رونالدو، مايكل جاكسون في حينا، كلب بريجيت باردو، مشية نعومي كامبل، جدار أكاديمي وغيرها.)

وفي خضم هذا الأساطير الوافدة ثمة دائماً نسخة محلية عن ذلك الأصل الباهر، سواء في صورة المغنية في جناس اسمها أو عرقها الخلاسي، أو في صورة عارضة الأزياء أو لاعب الكرة أو حتى السياسي، ومن هذا التنازع بين الأصل والنسخ، تنشأ دراما ذات شجون حقاً، طرفاها المرارة والضحك في آن واحد!

من هنا يبرز فن صناعة الوهم بوصفه ضرورة، ليس بما يشكله من أفق مفترض لنافذة مفتوحة في محيط مغلق بقسوة، وإنما كذلك بما يزيد تقريب المسافات بين الأمكنة ليجعل مما هو وهم مفترض يبدو وكأنه الحقيقة التي يتواطأ الجميع تقريباً من أجل التعاطي معها، فمزحة عابرة قد تتحول إلى فكرة تسيطر على أسرة كاملة وحي بأسره يدفعه إلى خلق جذور وهمية لتاريخ في مكان آخر بينما المكان الحالي يستبيحه المحتل، وبهذا يصبح الوهم المصنوع تحت قوة اليأس منقذاً سحرياً لنسج علاقة مع الآخر "المحتل" لكن حتى تجميل الوهم لكي يغدو صلة طيبة لم يفلح في نسج خيط واحد مع ذلك الآخر.

وبحبر هذه السخرية السوداء نقرأ حكايةً داخل الحكاية أو تتحول الحكاية الأساسية إلى ينبوع تتفرع عنه حكايات متصلة تولِّد سيرة متجذرة في عراء الانتماء القلق، والوجود المهتز، فتضيف له اهتزازاً آخر.

حكاية تنمو بمتعة منذ أول سطورها حيث تأخذنا إلى لحمها الحي وبنيتها الداخلية دون ديكورات بلاغية ولا نعوت مستعارة لتبدو مثل حكايات تتصل ببعضها في سياق متسلسل، وغير منفصلة لا في طبيعة الحكايات نفسها ولا في الشخصيات أو طريقة معالجتها ونموها واهتماماتها اليومية، بل إن بعض القصص تنتهي عند حد لتستكمل في وقت آخر وكأنها معطى غير مكتمل وإنما يخضع لتبدلات الواقع وتحولاته اليومية الساخنة.

وعلى هذا الأساس يمكن رصد نموذجين في قصص محمود شقير الأول في القصص القصيرة، التي يمثلها القسم الأول، والثاني في القصص القصيرة جداً التي تشكل تراثاً في فن السرد لا يزال في طور الإرهاص الأسلوبي والتقلب في سياق الهامش السردي رغم مضي أكثر من ثلاثة عقود على شيوعه في الأدب العربي.

على إن هذا المفرق الأسلوبي يشبه إلى حد بعيد تلك المسافة بين السينما والتلفزيون بين صورة الواقع هنا أو صورة الواقع هناك، ذلك إن عدسة الكاميرا السينمائية تحضر بقوة في القصص القصيرة جداً لتشكل مشهداً آخر تماماً مشهداً يفترق بوضوح عن ذلك المستل من فداحة الواقع على الشاشات الفضائية والإعلام المصنوع بقوة الصورة.

وبهذا المعنى يمكن القول إن المسافة الأسلوبية هي الحد الفاصل بين كتابات شقير وليس طبيعة الحكاية وحدها.

الشكل والمضمون هنا تعبيران عن تلك المسافة المتضحة في فن السرد، وتقلبات تلك النماذج في متنه وما يعلق بها من تأويلات في زمن الاحتلال الذي يعيد صياغة هذه الأساطير ويكيِّفُها على وفق معيارية صارمة حقاً تتمثل في تلك المحلية النائسة، وإن باضطراب، بين حقيقتها ووهمها، والمعجونة بخميرة تتأتى من صلة مع العصر المدوي في الخارج والمقيد والمكتوم تماماً في الداخل، لتعيد صياغة مصير الإنسان بين الذاكرة المفتوحة التي بدت وكأنها تجترّ نفسها بألم وبين عصر الثقافات المتنافذة على بعضها بشكل يدعو إلى رصد هذا التحول وتأمله بدقة.

على أن اللافت في قصص شقير، هذا التظهير الجريء، للجانب المهمل من الواقع، الجانب الذي "يأنف" الكتاب عن تناوله، عادة، تبطراً وانشغالاً بموضوعات أكثر التصاقاً بلحظة الكتابة لا بلحظة المعيوش، فمحمود شقير يعيد لهذا المعيوش المهمل اعتباره عبر تخصيص مجموعات قصصية كاملة لتدوين سيرة للعابر والطارئ والبعيد والغرائبي، لكنه المؤثر والفعال في حياة الناس، بل والصانع غالباً لأقدارهم وطرق عيشهم.

آمنة النصيري

من مواليد مدينة رداع في اليمن. حاصلة على دكتوراه في فلسفة الفن، جامعة الصداقة موسكو. تعمل أستاذة مساعدة لعلم الجمال في قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة صنعاء. شاركت في العديد من المعارض والفعاليات التشكيلية المحلية والعربية والدولية، إلى 8 معارض شخصية في صنعاء وموسكو. لها عدد من المؤلفات، إلى جانب كتابات نقدية حول الفن التشكيلي في عدد من الصحف والمجلات المحلية والعربية، وأعمدة ثابتة في أكثر من صحيفة محلية. عضوة مؤسسة في نقابة الفنانين التشكيليين اليمنيين، بالإضافة إلى عضويتها في جماعة الفن المعاصر وأتيلييه صنعاء. تعيش وتعمل في صنعاء.

الراعي
محمد بن عيسى الجابر
MBI FOUNDATION

المؤسس
شوقي عبد الأمير

المدير التنفيذي
ندى دلّال دوغان

الإستشارات الفنية
صالح بركات
غاليري أجيال، بيروت.

المَقَرّ
بيروت، لبنان

يصدر بالتعاون
مع وزارة الثقافة

تصميم و إخراج
Mind the gap, Beirut

تخطيط الشعار
سمير الصايغ

المحرّر الأدبي
محمد مظلوم

سكرتاريا وطباعة
هناء عيد

المطبعة
پول ناسيميان،
پوميغرافور برج حمود بيروت

الإستشارات القانونية
«القوتلي ومشاركوه ـ محامون»

الإستشارات المالية
ميرنا نعمي

المتابعة والتنسيق
محمد قشمر

الهيئة الاستشارية
أدونيس
أحمد الصيّاد
أحمد بن عثمان التويجري
جابر عصفور
جودت فخر الدين
سلمى حفار الكزبري
سيد ياسين
عبد الله الغذامي
عبد الله يتيم
عبد العزيز المقالح
عبد الغفار حسين
عبد الوهاب بو حديبة
فريال غزول
محمد ربيع
مهدي الحافظ
ناصر الظاهري
ناصر العثمان
نهاد ابراهيم باشا
هشام نشّابة
يمنى العيد

الصحف الشريكة
الأهرام القاهرة
الأيام رام الله
الأيام المنامة
تشرين دمشق
الثورة صنعاء
الخليج الإمارات
الدستور عمّان
الرأي عمّان
الراية الدوحة
الرياض الرياض
الشعب الجزائر
الشعب نواكشوط
الصحافة الخرطوم
العرب طرابلس الغرب وتونس
مجلة العربي الكويت
القدس العربي لندن
النهار بيروت
الوطن مسقط

خضع ترتيب أسماء
الهيئة الإستشارية
والصحف للتسلسل الألفبائي
حسب الاسم الأول

رحل سمير سرحان في مطلع العقد السادس من عمره وهو يكابد مرضاً عُضالاً بطريقته وبعشقه المتميز للحياة، فقد رأيته آخر مرة يجلس على منصة في ندوة ثقافية، فوق رأسه تتدلى قنينة التغذية،...

رحل سمير سرحان واحدٌ من أهم صنّاع الثقافة العربية الذي جعل من معرض القاهرة الدولي للكتاب «مقهى الحياة»* الثقافية بأكثر أشكالها حيوية وسجالاً، لقاء الأصدقاء والأعداء، تملأ أركانه سجالات الأدباء والفنانين بكل حفاواتها وخصوماتها ويؤمه الملايين من محبي القراءة والثقافة،...

رحل سمير سرحان متأبطاً ضحكته العالية، غضبه السريع، قلبه الكبير ومؤلفاته التي لا يتحدث عنها مُفَضِّلاً الإصغاء للآخرين والعمل بينهم ومن أجلهم فقد كان يؤثر صفحة الأداء وحبر الأشياء،...

رحل سمير سرحان شريك «كتاب في جريدة» عضو الهيئة الاستشارية منذ السنوات الأولى حاضناً مواكباً داعماً لهذه المسيرة التي وجد فيها تجسيد العمل الثقافي العربي بأنبل أشكاله في خدمة القارئ، أبسطِ قارئٍ في الخارطة العربية،...

رحل سمير سرحان وقبل أيام نال جائزة الدولة التقديرية للأدب في مصر، آخر الأوسمة والنياشين التي منحت لـ «ملك يبحث عن وظيفة»* وإلى بطل بـ«سبعة أفواه»*، في الفصل الأخير من مسرحية «الكذب»* الكبير التي أغلق ستارتها وراءه،...

سمير سرحان، هذه المرة وداعاً يا صديقي

شوقي عبدالأمير عن الهيئة الاستشارية والهيئة العامة لـ «كتاب في جريدة».

* **عناوين لبعض من مؤلفات الراحل.**

كتاب في جريدة
العدد الثلاثون
التسلسل العام: عدد رقم 96
(2 آب 2006)
ص.ب 1460-11 ـ بيروت، لبنان
تلفون/ فاكس 835 868 (1-961+)
تلفون 219 330 (3-961+)
kitabfj@cyberia.net.lb
kitabfijarida@hotmail.com

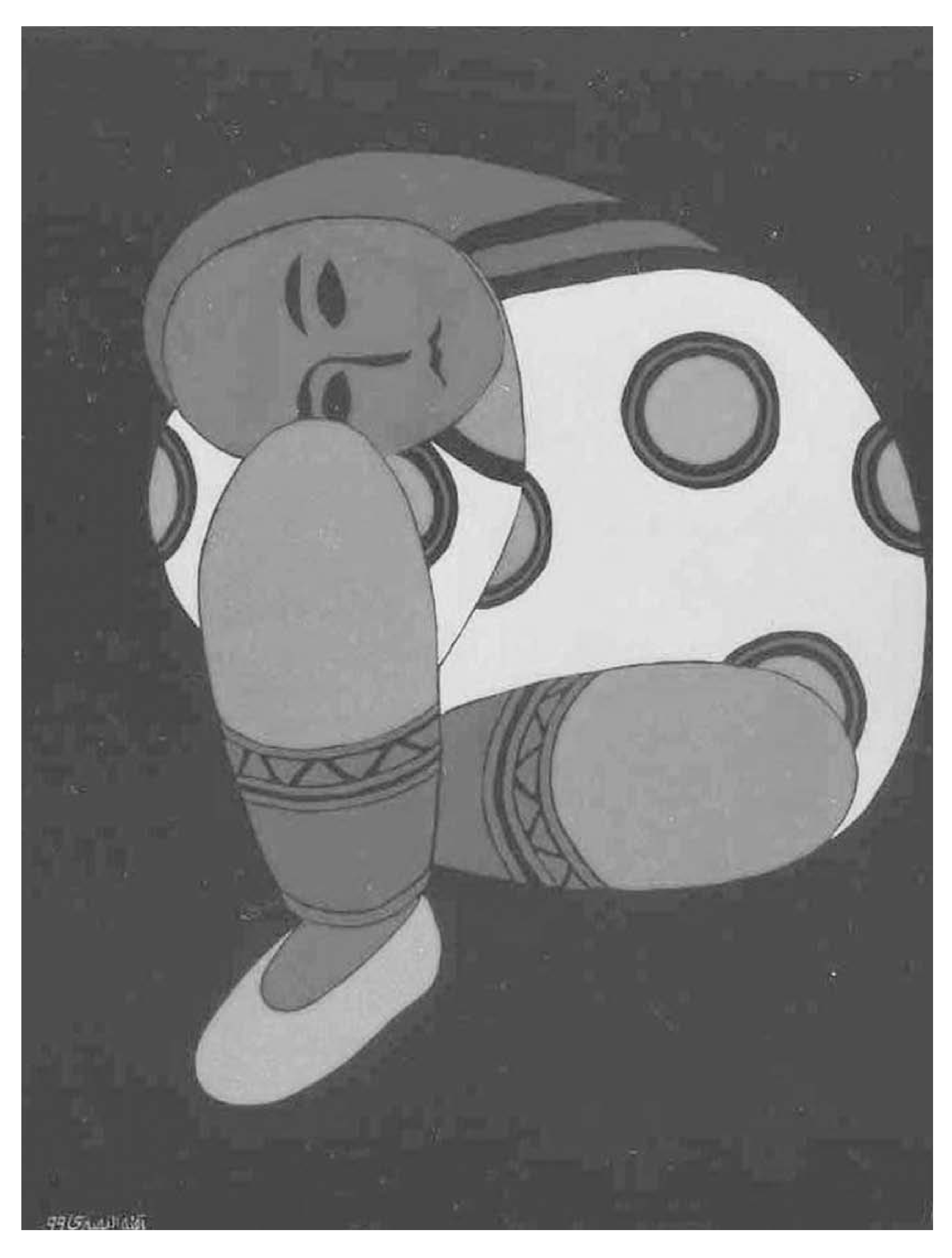


صورة شاكيرا

وقصص أخرى

محمود شقير

صـورة شـاكيرا



للمرة السابعة، يرابط ابن عمي على باب مكتب الداخلية الإسرائيلية، لتجديد الوثيقة التي لولاها لما استطاع السفر عبر المطار. اعتاد أن يأتي في الساعة السادسة صباحاً، يفاجأ بطابور طويل من الناس الذين جاء بعضهم بعد منتصف الليل بقليل. أخيراً، لجأ إلى منظمة اسرائيلية غير حكومية، تبنى مديرها الموضوع للمرة الأولى والأخيرة، واستطاع أن يحجز موعداً لابن عمي للدخول إلى المبنى الذي يتعذب أبناء القدس على بابه منذ سنوات.

جاء ابن عمي إلى مكتب الداخلية هذه المرة وهو أكثر ثقة بنفسه، لأنه والحق يقال، كاد يكفر بكل شيء كلما وجد نفسه محشوراً بين حشد من الناس المتدافعين دون تهذيب، بل إنه كاد يشتبك بالأيدي مع شابين، قاما بتخطي كل الناس، بمن فيهم ابن عمي. ابن عمي اختصر الشر، وترك الشابين يفعلان ما يريدان، ولم يحدث أحداً غيري عن معاناته، لأنه معني بأن يظل أهل الحي مقتنعين بأنه ذو بأس، ولا يُغلق في وجهه أي باب.

صاح الحارس من خلف شبك الحديد: طلحة شاكيرات! رد ابن عمي في الحال: نعم، نعم، أنا طلحة شاكيرات. فتح الحارس الباب لابن عمي، الذي اجتاز الباب باعتداد وسط حسد الحشد المنتظر منذ ساعات. حدق الحارس في ابن عمي لحظة، ثم سأله: شاكيرات! هل تعرف شاكيرا؟ لم يتأخر ابن عمي عن الإجابة لحظة واحدة: طبعاً، إنها واحدة من بنات العائلة. بدا الحارس مبهوراً بالأمر: أنا معجب بأغانيها، هل تعرف ذلك؟ قال ابن عمي: من أين لي أن أعرف! لكنني سأهديك بعض أغانيها التي أرسلتها لي قبل أسابيع! مدّ ابن عمي يده لمصافحة الحارس، مد الحارس يده وقال: أنا روني. قال ابن عمي: أنا طلحة شاكيرات! ثم صعد درجات المبنى وهو مسرور لهذه العلاقة التي مهدها له اسم شاكيرا، وأبدى امتناناً لجده شاكيرات الذي شاءت الصدف أن يحمل هذا الاسم بالذات، وإلا لظلت شاكيرا بعيدة عن التأثير في مصيره، ولما أتيح له أن يبني علاقة مع حارس من حراس مكتب الداخلية بمثل هذه السرعة التي لم تكن في البال. ابن عمي بنى آمالاً عريضة على تلك العلاقة، فهو محتاج إلى خدمات مكتب الداخلية، أفراد آخرون من العائلة محتاجون لخدمات المكتب أيضاً. وحينما يكون لابن عمي علاقة غير مشبوهة مع أحد الحراس، (نعم، علاقة غير مشبوهة! وهذا أمر يصر عليه ابن عمي، لأنه لا يحب أن يقال عنه إنه مرتبط بعلاقة مشبوهة مع سلطات الاحتلال) فإن ذلك سيتيح له أن يمارس رغبته في الظهور بمظهر الشخص القادر على مساعدة الأقارب والأصدقاء، الذين يتذمرون من سوء المعاملة التي يتعرضون لها أمام مبنى الداخلية باستمرار.

ابن عمي لم يضيع دقيقة من وقته. ما إن غادر مبنى الداخلية، حتى اتجه إلى أقرب محل لبيع الاسطوانات وأشرطة الغناء، سأل عن أحدث أغاني شاكيرا. باعه صاحب المحل عدة اسطوانات حملها بحرص بالغ وعاد بها إلى البيت. استمع إليها عدة ساعات دون انقطاع. ثم أخبر والده بحقيقة أن ثمة واحدة من بنات العائلة تمارس الغناء! عمي الكبير أظهر استياءه الفوري من هذا الخبر، لأنه لا يطيق أن يمس أحد سمعة العائلة بكلام لا يليق. غير أن ابن عمي خفف من وقع المفاجأة على والده، وحدثه عن الحارس روني المعجب بشاكيرا، (عمي يحاول منذ أشهر الدخول إلى مبنى الداخلية دون جدوى) وحدثه كذلك عن النجاحات التي تحققها شاكيرا في عالم الغناء، وكيف أن العائلة، عائلة شاكيرات، يمكنها أن تجني فوائد جمة من علاقة كهذه! حينما شمّ عمي الكبير رائحة المصالح تفوح من الخبر الذي سمعه، انتعش دون حاجة إلى دواء، وراح يستفسر من ابنه عما لديه من معلومات عن شاكيرا، لكي يطابقها مع معلوماته عن شجرة العائلة، التي يحفظها عن ظهر قلب.

بعد تمحيص سريع، أكد عمي الكبير لمن يرتادون مضافته من أهل الحي، أن جدّ شاكيرا الأول ينتمي إلى عائلة شاكيرات، وأنه رحمة الله عليه اختلف مع إخوته على تقسيم الإرث الذي تركه والدهم، فاختار الهجرة إلى لبنان، وهناك، غيَّرَ ديانته حينما أحب حتى الجنون، امرأة لبنانية جميلة، تنتمي لديانة سيدنا عيسى عليه السلام، ثم تزوجها وأصبح له منها أولاد كثيرون ظلوا يتناسلون حتى جاء إلى الدنيا والد شاكيرا، التي لولا شهرتها المفاجئة في عالم الغناء، لظل هذا الفرع من عائلة شاكيرات مجهولاً، لا يعرف أحد من أبناء حيّنا شيئاً عنه.

حينما أصبح الحي كله يتناقل أدق التفاصيل عن شاكيرا، أخذ عمي الكبير يشعر بالحرج، فالبنت متحررة تماماً كما يبدو، ربما لأنها تعيش في الجزء الغربي من الكرة الأرضية، (في بلاد اسمها كولومبيا يا سيدي! هذا ما يقوله عمي بشيء من التذمر) ولو كانت مقصوفة العمر تعيش هنا في هذا الحي (حيّنا)، لما سمح لها عمي الكبير بالرقص والغناء، وهي شبه عارية! عمي الكبير لا يصدق أن شاكيرا تظهر شبه عارية على التلفاز، هو لا يشاهد التلفاز، لكن أناساً كثيرين رووا لعمي أنهم شاهدوا شاكيرا على شاشة التلفاز، ببطن عارٍ وفخذين مثل الألماز، يستمع عمي الكبير إلى كلامهم، ولا يجرؤ على تكذيبهم، لكنه يتملص بشكل أو بآخر من الموضوع، يحاول صرف الأذهان عن الرقص والغناء، بالعودة إلى الماضي الجميل، يحدثهم عن شجاعة الجد الأول لشاكيرا، وكيف أنه صادف ضبعاً في البرية ذات مساء، فلم يجبن ولم ينضبع، بل إنه ظل يصارع الضبع حتى صرعه، سلخ جلده وباعه بأرخص الأثمان!

حينما يخلو عمي الكبير إلى نفسه، يميل إلى تصديق كلام أهل الحي: لولا أنهم شاهدوها ترقص شبه عارية لما تحدثوا عن ذلك. كان يفاتح ابنه بهواجسه هذه، وفي بعض الأحيان، كان يشتم شاكيرا بألفاظ نابية، فلم يجرؤ ابن عمي على إخبار أبيه بأن شاكيرا متورطة في علاقة حب مع ابن رئيس الأرجنتين، لو عرف عمي ذلك، ربما اندفع إلى نزع صورة شاكيرا عن صدر الحائط في بيته. الصورة أحضرها ابن عمي طبعاً، وجدها منشورة في إحدى الصحف، فأخذها إلى المصور وطلب منه أن يُكبِّرها، كبرها المصور وأحضرها ابن عمي، واقترح على أبيه أن يعلقها على صدر الحائط في المضافة، غير أن عمي استكثر هذا وقال: منذ متى يا طلحة نقبل بأن نضع صور نسائنا في المضافة التي يأتيها الناس من كل مكان! فاختصر ابن عمي النقاش حول الأمر وعلق الصورة في إحدى غرف البيت المخصصة للنساء. وقد اضطر عمي الكبير إلى الرضوخ لمشيئة ابنه، (اضطر لذلك أملاً في الحصول على بطاقة هوية تمكنه من السفر عبر الجسر، فقد ضاعت بطاقة هويته التي استلمها من الإسرائيليين بعد احتلالهم للقدس) غير أنه وضع شالاً فوق إطار الصورة لكي يحجب شعر شاكيرا وكتفيها العاريين عن العيون. فعل عمي الكبير ذلك، لحفظ سمعة شاكيرا والعائلة من ألسنة النساء اللواتي يأتين بين الحين والآخر إلى البيت، للزيارة ولنقل الشائعات.

ولم تكن هذه هي الصورة الوحيدة لشاكيرا، فقد امتلأ مكتب ابن عمي بصور مختلفة للمغنية الشابة. ألاحظ ذلك حينما أزوره بين الحين والآخر، أمد يدي له بالتحية وأنا أحدجه بنظرة تنمُّ عن اتهامي له بأنه كلب! يمد يده لي بالتحية وهو يحدجني بنظرة تنمُّ عن اتهامه لي بأنني حمار. يقول لي: أنت ما زلت دَقَّة قديمة، خليك ملحلح شوية! الظروف تغيرت، ونحن نعيش زمن الإنترنت والقنابل الذكية! أجلس في مكتبه العامر بالإيحاءات العصرية، أتابع اتصالاته الهاتفية التي لا تنقطع، أحاول معرفة ما يدور على شاشة الكمبيوتر المتربع على مكتبه، فلا أعرف شيئاً، يضحك بين الحين والآخر ضحكة سمجة، ثم يحدق في الشاشة، وبالذات كلما أراد أن يستريح من الكلام معي، أو لكي يتهرب من سؤال لا يحب أن يجيب عليه.

لابن عمي علاقات كثيرة من هذا الطراز، وهو مقتنع بأنها ستعود عليه ذات يوم بالنفع العميم. مثلاً، حينما راج الخبر حول علاقة الحب التي تربط شاكيرا بابن رئيس الأرجنتين، لم يعلق هذا الخبر بذهني سوى لحظة واحدة. أما ابن عمي، فقد راح يوظفه في شبكة استعداداته للمستقبل. قال لي: سأوثق علاقتي بالأرجنتين انطلاقاً من هذا الخبر، سأسعى لكي أصبح وكيلاً لبعض الشركات الأرجنتينية، وقد أُصبحُ ذات يوم قنصلاً فخرياً للأرجنتين في المشرق العربي كله! حينما ابتسمت ساخراً منه، ضحك باستهزاء وقال: أنت واحد درويش! (يقصد: حمار، بطبيعة الحال)

ولابن عمي اجتهادات عجيبة غريبة. تحداني مرة قائلاً: أستطيع أن أدعو عشرة رجال وعشر نساء لتناول طعام الغداء في بيتي، أسكب لهم الطعام من طناجر فارغة في صحون فارغة، وسيأكلون حتى الشبع، وسيعودون إلى بيوتهم وهم متخمون من كثرة ما التهموا من طعام! يقول ابن عمي متباهياً بقدراته الذهنية، معتداً بانتباهه الدقيق لإيقاع العصر ومنطقه: تستطيع أن تخلق لنفسك الحقائق التي تريدها، وتستطيع في الوقت نفسه أن تقنع أعداداً متزايدة من الناس بهذه الحقائق التي لا يمكن لمسها أو إقامة الدليل المادي على وجودها! المهم في الأمر أن تكون على قدر من اللحلحة والبراعة والذكاء. كنت أتجنب الدخول في رهان مع ابن عمي لسبب ما.

أما عمي الكبير فقد دخل الرهان، وأيقن أن الحارس روني سيستقبله ويأخذه في الأحضان، سيحدثه عمي عن جد شاكيرا الأول، سيقول له إن هذا الفرع من العائلة معروف بحب الطرب وبالميل إلى الغناء منذ زمن بعيد، ولذلك، فإن العائلة لم تستغرب أمر نبوغ شاكيرا في الرقص والغناء! سيروي له، إن سمح وقته، (وقت روني) نوادر كثيرة عن جد شاكيرا الأول. عمي الكبير دخل الرهان، وأيقن أنه سيحصل على بطاقة هوية جديدة، وسيذهب إلى عمان، للحصول على جواز سفر مؤقت، سيذهب إلى اسبانيا لقضاء عدة أسابيع هناك. اعتاد عمي الكبير أن يتفشخر أمام الناس، فيقول على نحو مثير للفضول: سأذهب إلى إسبانيا لزيارة ابنتنا! ولما كان أهل الحي يعرفون أن كل بنات عمي الكبير مقيمات هنا في الحي، فإنهم كانوا يسارعون إلى طرح السؤال عليه: من هي ابنتكم هذه؟ فيجيبهم متباهياً: شاكيرا! إن لها بيتاً فخماً في إسبانيا تقيم فيه عدة أشهر كل عام.

ولن يكتفي عمي الكبير بزيارة شاكيرا، (الفالتة اللي ما خلّت دف إلا رقصت عليه! يقول عمي ذلك للصفوة من أبناء العائلة) فقد قرر أن يزور الديار الحجازية لأداء فريضة الحج بعد طول انتظار. عمي الكبير لا يقطع فرضاً، يصلي الصلوات الخمس في أوقاتها، غير أنه يشعر بالندم لأنه ارتكب بعض الذنوب في أيام شبابه. مرة، عمل عمي الكبير في التجارة. كان يذهب إلى إحدى القرى في موسم الزيت، يشتري خمسين تنكة من زيت الزيتون، يُدخلها إلى مخزن أعدَّه خصيصاً لهذا الغرض، ثم يخرجها منه لكي يبيعها وقد أصبح عددها مائة تنكة، (كانت لعمي طريقة بارعة في الغش)، كان يدهن رقبته بزيت الزيتون خفية، متوقعاً أن يستحلفه الناس إن كان الزيت الذي يبيعه لهم زيتاً أصلياً، يتظاهر عمي الكبير بأنه يحلف وهو يقول: على رقبتي زيت زيتون أصلي! فيصدقون. عمي الكبير أسرّ لي بذلك لكي يتخفف من شعوره بالذنب، وقال: سأذهب لأداء فريضة الحج كي يغفر الله لي هذا الذنب.

ولعمي الكبير ذنوب أخرى، مرة جاءت بائعة الحليب إلى بيته في الصباح. فتح لها الباب، فأعجبه قوامها المديد، مدّ يده إلى صدرها، أطبق على نهدها بأصابعه دون استئذان. بائعة الحليب ابتعدت عنه وهي تقول: آه من قلة حيائك يا رزيل. عمي الكبير يشعر الآن بالحرج، إذ كيف سيقابل وجه ربه في الآخرة، وكيف سيكون حاله يومَ يسأله الملكان اللذان سيشرعان في الكشف عن ذنوبه فور نزوله إلى القبر: قل لنا لماذا وصفتك بائعة الحليب بأنك رزيل! عمي الكبير لم يبح لي بهذا الذنب الذي ارتكبه، وإنما وصلني الخبر عن طريق أحد مجايليه، وهو يصر على أنه لم يرتكب ذنباً آخر سواه، مع أن الشائعات تتحدث عن ذنوب أخرى ارتكبها عمي الكبير.

عمي الكبير دخل الرهان بالرغم من حذره الشديد. سمعته غير مرة في زمن سابق يتعجب من استعجال ابنه ورغبته الطاغية في الشهرة والثراء، كان ينصحه قائلاً: يا ولد ريغا ريغا، والعجلة من الشيطان! هذه المرة تخلى عمي عن حذره ودخل الرهان. في صبيحة أحد الأيام، ذهب صحبة ابنه، إلى مبنى الداخلية للحصول على بطاقة هوية. ذهبت معهما مدفوعاً بالفضول، ولم نذهب إلا في وقت متأخر من الصباح، لأن ابن عمي كان على ثقة من أن الحارس روني سيهبّ لاستقبالنا حالما يرانا، وسيفتح لنا باب المبنى الحديدي في الحال. وصلنا المبنى وهالنا عدد الناس المتجمهرين هناك تحت حر الشمس. نظر ابن عمي عبر شبك الحديد، قال لنا باعتزاز وهو يشير إلى شخص له شعر أشقر طويل: ها هو روني! رفع عمي يده محيياً، فلم يستجب لتحيته أحد. قال ابن عمي: إنه مشغول، هو دائماً مشغول في هذه القضية أو تلك. وقال: ننتظر قليلاً حتى ينتبه لنا. سأله عمي: متى كانت آخر مرة قابلته؟ قال: قبل أسبوعين، حينما أحضرت له مجموعة من أغاني شاكيرا. ارتاح بال عمي قليلاً، لكنه بدا قلقاً بعد ذلك بلحظات.

حاول ابن عمي أن يميز نفسه قليلاً عن جمهور الناس المتزاحمين حول شبك الحديد وأمام باب المبنى، وقف على رؤوس أصابع قدميه، رفع يده عالياً فوق رأسه، وراح يلوح بيده لروني لعله يراه. كان روني مشغولاً في انتهار الناس الذين يلحون عليه من أجل السماح لهم بالدخول إلى المبنى، آثر ابن عمي الانتظار بعض الوقت دون الإتيان بأية إشارات من يده. غير أنه تضايق حينما سمع عمي الكبير يسعل، تعبيراً عن الضيق والاستعجال. اضطر ابن عمي إلى رفع صوته منادياً: روني! قالها بصوت خافت أول الأمر، فلم ينتبه له روني. كرر النداء بصوت ممطوط مشوب بالثقة نوعاً ما: روني! ناداه ابن عمي من جديد بصوت مشوب بالارتباك: يا سيد روني! حاول ابن عمي أن يستنفر إحساسه بإيقاع العصر ومنطقه: أدون روني! أدون روني! نظر روني نحو ابن عمي نظرة سريعة، ثم أشاح بعينيه عنه لسبب ما. كرر ابن عمي المحاولة بعدة لغات: ماشلوم خا أدون روني! هاو آر يو مستر روني! كيف حالك يا سيد روني! بدا واضحاً أن روني قد سمعه، لكنه لم يعره أي اهتمام.

لم يستطع عمي الكبير احتمال هذا التجاهل الذي أظهره تجاهنا الحارس روني. صاح بصوت حاد: يا خواجا روني! رُد علينا يا خواجا! انتبه روني إلى الصيحة الجارحة التي أطلقها عمي، سأل وهو مستفز تماماً: أيش بدَّك، قل لي؟ قال عمي بلهجة محملة بالود والرجاء: ابني طلحة، يناديك! أيش بدُّه ابنك، قل لي؟ ابتسم ابن عمي ابتسامة عريضة لتهدئة الموقف، ولم يجد عمي بُدَّاً من إطلاق آخر سهم في جعبته لعله بذلك ينعش ذاكرة روني من سباتها اللعين، قال: إحنا أقارب شاكيرا، شو! نسيتَنا يا رجل! اغتنم ابن عمي لحظة الصمت التي سيطرت على الموقف، قال باستعطاف: اسمح لنا بالدخول يا أدون روني. ردّ روني بغطرسة: بدَّك تنتظر! أنا مش فاضي لك. ثم أدار ظهره دون اكتراث. حدقتُ في وجه ابن عمي: (كلب) حدق ابن عمي في وجهي: (حمار) ولم نتبادل أي كلام.

اعتزل عمي الكبير الناس ثلاثة أيام، قام أثناءها بنزع صورة شاكيرا عن الحائط، ألقى بها بقوة على الأرض فاستحال زجاجها إلى شظايا متناثرة. ولم يسافر عمي إلى إسبانيا، كما لم يذهب إلى الديار الحجازية لأداء فريضة الحج، أما ابن عمي فقد أخبرني بأنه سيذهب إلى الحارس روني مرة أخرى، ومعه مجموعة من أغاني ابنة العائلة، شاكيرا المحبوبة، حفظها الله!

2003

مقعد رونالدو

لم يأبه كاظم علي لكل المتاعب التي تعرض لها، بسبب حماسه للاعب كرة القدم البرازيلي، رونالدو. كاظم علي يعشق كرة القدم، وأهل حارته لا يعشقونها، ولا يعيرونها أي اهتمام. يقولون: لدينا هموم كثيرة، ولا نملك وقتاً لنضيعه على الكرة. من فرط حماسه، أكدّ كاظم علي أن ثمة مراسلات على الإنترنت بينه وبين رونالدو. أثمرت هذه المراسلات، كما قال كاظم علي لأهل الحارة، وعداً قاطعاً من رونالدو، بالقدوم هو وزوجته وطفله، لزيارته، ولقضاء شهر أو شهرين في ضيافته، كاظم علي أكد بأن رونالدو قادم لا محالة.

حتى هذه اللحظة لم تقع أية مشكلة جراء ذلك، فقد اعتاد أهل الحارة على سماع قصص غريبة يرويها كاظم علي، بين الحين والآخر، تتمحور في الغالبية العظمى منها، حول كرة القدم. يقول الواحد منهم للآخر بعد الاستماع إلى كاظم علي: حُطْ في الخُرْج، ولا تصدق ما يقوله هذا السائق الثرثار. لم يكن هذا الكلام يقال لكاظم علي مباشرة، غير أن الكلام كان يصله بهذا الشكل أو ذاك. يشعر بالاستياء، ويواصل تأكيداته بأن رونالدو قادم.

ذات صباح، حاول أكثر من واحد من أبناء الحارة، الجلوس في المقعد الأمامي لسيارة الأجرة التي يقودها كاظم علي. لم يسمح كاظم علي لأحد بالجلوس في المقعد الأمامي، اكتفى بتكرار جملة واحدة على أسماع الجميع: هذا المقعد محجوز لرونالدو. تنطلق السيارة إلى المدينة دون أن يصعد إليها رونالدو، ودون أن يفكر أحد بالدخول في نقاش عقيم مع كاظم علي. لم يكن من الصعب طرح عدة تساؤلات سريعة: أين هو صديقك البرازيلي يا كاظم علي؟ أين هي زوجته وطفله؟ أين هو هذا المدعو فونالدو؟ (يضحك كاظم علي ويحاول تصحيح الاسم دون جدوى) ولا يجيبهم عن تساؤلاتهم بشكل واضح، ما يزيد الأمر غموضاً وغرابة. ولا يتوقف في الوقت نفسه عن تكرار السلوك نفسه، والتلفظ بالكلمات نفسها في الصباح وفي المساء: هذا المقعد محجوز لرونالدو. يسكت الجميع ولا يفكرون بمجرد الاعتراض، ولا يعودون إلى طرح الأسئلة.

غير أن شائعة لم تخطر على البال، ثارت كالزوبعة في الحارة: كاظم علي يحجز المقعد الأمامي في سيارته، لغايات التهتك والولدنة مع بنات الناس! رآه أحد أبناء الحارة، (هكذا تقول الشائعة(وهو يميل برأسه نحو فتاة تجلس إلى جواره في المقعد الأمامي بعد الغروب، ولم يكن في السيارة أحد سواهما! كاظم علي ولد ملعون، قليل الأدب، يسخر سيارته لخدمة نزواته الطائشة، ولا بد من تلقينه درساً في الأخلاق.

وصلت الشائعة إلى كاظم علي، سخر منها، اعتبرها مجرد كلام أطلقه شخص مأزوم، فالحارة كلها تعرف أن كاظم علي يحب زوجته التي تزوجها بعد شهرين من اقتران رونالدو بفتاة أحلامه. كاظم علي لم يعد إلى التحرش بالبنات بعد زواجه مباشرة، على العكس من بعض أصدقائه سائقي سيارات الأجرة، الذين لم يعصمهم الزواج من الاستمرار في إقامة علاقات خفية مع بنات جميلات. كاظم علي له رأي ثابت بخصوص الزواج: لا تتزوج الفتاة التي تستجيب لك من أول نظرة. وقد اقترن بزوجته استئناساً بهذا الرأي: ذات صباح، صعدت فتاة إلى سيارة الأجرة، لم يكن فيها أحد سوى سائقها كاظم علي. صعقته الفتاة بجمالها، تأمل خديها وعنقها وأصابع يديها، قال دون مقدمات: أنا طالب القرب. خلعت الفتاة فردة حذائها، هزتها في وجه كاظم علي، كادت تضربه لولا أنه اعتذر لها في الحال.



ظل كاظم علي يبحث ثلاثة أيام متواصلة عن بيت الفتاة، ولما عرفه أرسل أمه وخالته وأخته للتعارف مع أهل الفتاة تمهيداً لطلب يدها. بعد عدد من الإجراءات الروتينية تمت الخطوبة، ثم الزواج. ظل كاظم علي منجذباً مثل المجنون إلى جمال زوجته، لم يفكر أبداً بالنظر، مجرد النظر، إلى أية فتاة أخرى، والآن من هو هذا المأزوم الذي أطلق شائعة فاقعة من هذا النوع! ليذهب إلى الجحيم هذا الشخص اللعين.

غير أن كاظم علي دفع ثمن الشائعة. اعترضه ثلاثة رجال ملثمين، أوسعوه ضرباً، ومع ذلك، لم يكف عن حجز المقعد الأمامي في سيارته لرونالدو. وزاد على ذلك، بأن ثبت صوراً عديدة لنجم الكرة المحبوب على زجاج السيارة. ولم تلبث شائعة أخرى أن انتشرت في الحارة: كاظم علي يتستر على شخص له صلات مشبوهة مع سلطات الاحتلال. راجت هذه الشائعة، ووجدت من يصدقها، بعد أن أقدمت هذه السلطات على هدم ثلاثة منازل جديدة في الحارة، بحجة أنها شيدت دون ترخيص من الجهات المسؤولة! المسألة واضحة ولا تحتاج إلى فصاحة زائدة: أهل الحارة متضامنون مع بعضهم بعضاً، ولا يمكن لأحدهم أن يقوم بالوشاية على جاره أو قريبه. إذاً، كيف عرفت السلطات المحتلة بأمر هذه المنازل الثلاثة؟ المسألة واضحة مثل عين الشمس. وقد توطدت الشكوك، حينما داهم جنود الاحتلال، الحارة في إحدى الليالي، واعتقلوا أربعة عشر شخصاً من أبنائها!

حركة «الأفعال لا الأقوال» التي تأسست قبل أشهر قليلة، ولم يزد أعضاؤها حتى الآن عن سبعة وعشرين عضواً، التقطت المبادرة على الفور، دعا زعيمها أهل الحارة إلى اجتماع حاشد، فلم يحتشد في الساحة سوى ثمانية رجال، نصفهم على الأقل من أعضاء الحركة، ونصفهم الآخر من أعضائها كذلك. قال زعيم الحركة متوعداً: ألا فليعلم المدعو بونالدو، أننا لن نغض الطرف عن كل مارق زنديق، ولن ندع العابثين يزرعون في صفوفنا الفرقة والخراب. (التهديد الأخير موجه تلميحاً لا تصريحاً إلى كاظم علي).

كاظم علي دفع الثمن. اعترضه سبعة رجال ملثمين، ليس لهم علاقة بالثلاثة السابقين، أوسعوه ضرباً، وبالرغم من ذلك، لم يكف عن حجز المقعد الأمامي لرونالدو، فانتشرت شائعات كثيرة جراء ذلك، كادت تهدد مستقبل الحارة بويلات لها أول وليس لها آخر. صاح رجل في الساحة ذات مساء: يا ناس، ألا يكفينا ما نعانيه من ويلات على أيدي سلطات الاحتلال، حتى يجر علينا هذا الكاظم علي ويلات جديدة! تحلق من حوله حشد من الناس. بعد جدال صاخب، تم اتخاذ القرار: نرسل وفداً إلى عائلة كاظم علي، وعلى العائلة أن تتدبر أمر ابنها العاق.

انطلق ثلاثة عشر رجلاً من أبناء العائلة، يتقدمهم كبيرهم الجزار، إلى بيت كاظم علي. بيت صغير في طرف الحارة، لكنه مملوء حباً. كانت نوال قد انتهت للتو من هدهدة طفلها في سريره قبل أن ينام، طبعت على خده قبلة وهي تقول: والله إنه شبه ابن رونالدو مِخْلَق مِنْطَق. ابتهج كاظم علي لهذه الملاحظة التي سمعها من زوجته للمرة العشرين، تقدم نحوها واحتضنها بشغف، حملها بين ذراعيه، ثم أنزلها حينما سمع دقات عنيفة على الباب.

أطبق ابن عمه الجزار بضراوة على ذراعه النحيلة، ضغط على رقبته بحد السكين الذي يستعين به لتقطيع لحم الخراف، ولمهاجمة الخصوم حينما تندلع المشاجرات العائلية التي لا تنقطع. صاح فيه: مين هو هذا كونالدو يا ولد؟ إحك، انطق. مين هو كونالدو هذا؟ حاولت نوال التدخل لحماية زوجها من هجمة أبناء العائلة، فلم تتمكن. تدبر أمرها ثلاثة منهم، جروها نحو المطبخ وهم يغلقون فمها بأيديهم الخشنة.

واصل ابن عمه الجزار طرح الأسئلة باستنكار: مين هو كونالدو هذا؟ قل لي، فهمني. اعتصم كاظم علي بالصمت، ولم يفه بأية كلمة. احتمل تعنيف أبناء العائلة، احتمل لكماتهم التي انهالت على وجهه، احتمل حد السكين الذي كاد يجز رقبته. قال ابن عمه الجزار: اسمع يا ولد! ما بدي أسمعك تحكي عن كونالدو السافل هذا، ولا تجيب سيرته على لسانك، سامع! ومن بكرة لازم يطلع من الحارة هذا الكونالدو، فاهم! لم يفه كاظم علي بأية كلمة، ظل يكظم غيظه حتى اللحظة الأخيرة. انصرف أبناء العائلة، أعطوا أهل الحارة وعداً بأن ابنهم لن يثير من الآن فصاعداً أية مشكلة، وبأن المشبوه كونالدو سيغادر الحارة نهائياً مع بزوغ شمس الصباح.

شعر كاظم علي أنه تعرض للإذلال، بكى على صدر زوجته، على صدرها الحنون بكى. بشفتيها مسحت دموعه المالحة، أمضت الليل كله وهي تسري عنه، حتى خف ألمه واعتدل مزاجه.

جلس كاظم علي في الصباح خلف مقود سيارته. اقترب منه أحد أبناء الحارة، همّ بالصعود إلى المقعد الأمامي للسيارة. صده كاظم علي بكلمات حاسمة: هذا المقعد محجوز لرونالدو!

2003

مايكل جاكسون في حيِّنا



مايكل جاكسون جاء إلى حيِّنا وغنى عدداً غير قليل من أغنياته القديمة، غنى بعض أغنياته الجديدة أيضاً.

الفكرة نبتت أصلاً، في رأس ابن عمي الذي تعرف على مايكل جاكسون، أثناء حفل غنائي صاخب في نيويورك. قال لنا ذات مساء، كمن يحلم : سأحضر مايكل جاكسون إلى هذا الحي بالذات، سأجعله يغني أغانيه العذبة أمام فتيان الحي وفتياته، وأنا أشهدكم جميعاً على ما أقول. صدقنا ابن عمي، وقلنا: يبدو أن له سطوة بالغة على الأمريكان، وإلا لما تحدث بمثل هذا اليقين. بدا واضحاً، أن هذه السطوة تعززت، بعد أن أرسلته المنظمة غير الحكومية التي يعمل فيها، إلى أمريكا، للمشاركة في دورة للإدارة الحديثة مدتها ستة أشهر. عمي الكبير بدا معنياً بشيء واحد وهو يودع ابنه لحظة السفر: ألا يعود إلى البلاد ومعه زوجة أمريكية! لعمي رأي متطرف تجاه الزواج من أجنبيات، وله حكمة يرددها باستمرار: من طين بلادك لُطّ اخدادك. ولم يُبد عمي اهتماماً بأي شيء آخر.

ابن عمي عاد من أمريكا بأفكار متناثرة، يتسم بعضها بقدر من العبث. قال إنه سينقل الحي، حيّنا، إلى عصر ما بعد الحداثة. عمي لم يفقه شيئاً مما يقوله ابنه، اكتفى بالقول: الله يرضى عليك يا إبني. أسس ابن عمي لجنة للحي تولى هو رئاستها، وقال إنه سيحضر مايكل جاكسون إلى الحي، بدا واثقاً من نفسه وهو يقول ذلك، تهامس بعض أهل الحي: الولد مسنود. بعد ذلك أثيرت الشكوك حول ابن عمي، قال بعض الناس: إنه مرتبط بوكالة المخابرات المركزية، حدث ذلك أثناء إقامته في أمريكا، بعضهم الآخر قال: إنه مرتبط بها قبل سفره بوقت معقول. وابن عمي لم يحظ بالسفر إلى هناك، إلا بعد أن تأكدت وكالة المخابرات المركزية من نظافة سجله الأمني، ومن أنه مقبول لديها تماماً. لم تتوقف الشكوك عند حد، بعضهم قال إن جورج تينيت لم يزر منطقتنا ولم يضع وثيقته التي تنص على توفير بعض الترتيبات الأمنية بين الفلسطينيين والإسرائيليين، إلا بعد الاستئناس برأي ابن عمي والتشاور معه في كل صغيرة وكبيرة.

ابن عمي لم يلق بالاً لكل هذا الكلام، قال: سأحضر مايكل جاكسون للغناء في الحي، لكي أسري عن أهل الحي ولأخفف من معاناتهم جراء رؤيتهم مناظر الدماء البريئة التي تسيل في بلادنا كل يوم. قال: سأحضره لكي أثبت للقاصي والداني أننا لسنا إرهابيين! لأن من يستمع إلى مايكل جاكسون لا يمكن أن يكون إرهابياً. لاحظنا أنه مصر على التلفظ بهذه الجملة الأخيرة، كأنه معني أن تسمعه جهة ما. يتلفظ بها بمناسبة وبغير مناسبة، أو كلما دق الكوز في الجرة، كما يقول عمي الكبير.

عمي الكبير أبدى معارضة مبدئية لقدوم مايكل جاكسون. عمي لا يحب الغناء ولا يشجع عليه، يقول إنه ينشر الميوعة في نفوس الشباب، ويغري البنات بالإقدام على أفعال يندى لها الجبين. عمي، منذ أن دخل التلفاز الحي، وهو يشن حرباً شعواء عليه. يقول: أبعدوا صندوق الشر هذا من داخل بيوتكم! عمي لا يعرف شيئاً عن صندوق باندورا، غير أن المشترك في التجارب الإنسانية يلهمه بعض أقواله كما يبدو، يقول: صندوق الشر هذا سيحول نساءنا إلى عاهرات! يجد عمي بطبيعة الحال من يصدقه ويشد على يديه، ويجد من يهزأ منه ويتهمه بأنه مخرخش، منقطع عما حوله منذ سنوات.

ابن عمي أعد لمجيء مايكل جاكسون إعداداً حسناً. حوّل قاعة الاجتماعات في المدرسة الثانوية إلى مسرح، خصص صندوقاً للرسائل التي يرغب المعجبون بمايكل جاكسون، وكذلك المعجبات به، في إيصالها إليه، أكد على رؤوس الأشهاد أن أحداً لن يطلع على الرسائل سوى مايكل جاكسون نفسه. تشجع عدد من الفتيان المعجبين بالمغني الشهير، وكتبوا له رسائل قذفوا بها في الصندوق، فعلت الشيء نفسه كثرة من الفتيات المعجبات به، كتبن رسائل وقعت كلها في يد ابن عمي، الذي أخل بالوعد، فضّ الرسائل واحدة بعد أخرى، بشهوانية واضحة، قرأها بإمعان، وأخبرني بكل ما فيها من أسرار. قال إنه فعل ذلك لكي يعرف اتجاهات الجيل الجديد، وطريقة تفكيره ونوعية نظرته إلى الحياة. قال: وجدت السطحية متفشية في تفكير الفتيان، أو على الأقل، هذا ما تشي به عقلية الشريحة المعجبة بمايكل جاكسون، مثلاً: يسألون المغني الشهير عن وجبة الطعام التي يشتهيها، يسألونه عن آخر نكتة سمعها، يسألونه عن اللون المفضل لديه. قلت لابن عمي مقاطعاً: هذا من تأثير التلفاز، دون أن يعني هذا أنني أوافق عمي الكبير على موقفه منه. أبديت رغبة في معرفة كيف تفكر الفتيات، لم أنتظر كثيراً، قال ابن عمي: الملعونات يعانين من كبت مسعور، تصوّر، تسع عشرة فتاة من أصل أربع وعشرين يعرضن على المغني، الزواج. قلن له إنهن يرغبن في الزواج منه! هكذا بكل صراحة ووقاحة! واحدة فقط، اقترحت عليه أن يتخذ منها أختاً له، لتمنحه شيئاً من الحنان الذي افتقده لدى أخته التي نشرت عنه كلاماً غير لائق في وسائل الإعلام. واحدة أخرى، وجهت إليه سؤالاً لا ينبئ بأي احترام: لماذا قمت بتغيير لون بشرتك بحيث تبدو بيضاء؟ وماله اللون الأسود يا حبيب أمك؟ قال ابن عمي: ثلاث فتيات سخرن من المغني، قلن في رسائلهن إنه ولد مائع ولا يقبلنه مجرد ماسح لأحذيتهن.

ابن عمي أغلق الرسائل بطريقة محكمة، أعادت إلى ذهني الشكوك التي يثيرها حوله بعض أبناء الحي، أعاد الرسائل إلى الصندوق، وراح يواصل الاستعدادات، لتنظيم استقبال يليق بمايكل جاكسون، الذي لبى دعوة ابن عمي له وجاء ليغني في الحي.

عمي الكبير قرر مقاطعة الحفل. قال إنه سيجلس في المضافة التي خصصها لضيوفه الكرام، سيغني لهم على أنغام ربابته أشعاراً شجية من أيام زمان. تراجع عن قراره أمام ضغوط طفيفة من بعض أهل الحي، تراجع حينما فكر في مصلحة ابنه الذي له سطوة واضحة، كما يبدو، على الأمريكان، قال مخفياً موقفه الأناني: أحضر الحفل من أجل مصلحة الحي. عمي ليس سيئاً بوجه الإجمال، وهو لا يؤذي أحداً، طوال تاريخه لم يقم بإيذاء أحد، غير أنه يجيد الزوغان حينما تهب على المنطقة رياح شريرة. كان قريباً من معظم الهزات السياسية التي وقعت في البلاد، غير أنه لم يكن مندمجاً فيها على نحو يجعله عرضة لمساءلة أو مخاطرة، إنه من النوع الذي يحب أن يظل على الشط، هذه هي فلسفته التي اختطها لنفسه خلال السنوات الخمسين الماضية، لولا بعض النزوات العابرة التي قد تنفع حيناً وتضر في بعض الأحيان. لذلك، قرر أن يحضر الحفل مع أنه غير راض عن ذلك في قرارة نفسه. ازداد



عدم رضاه حينما رأى النساء والفتيات يتقاطرن إلى القاعة، دون خشية أو خجل، للاستماع إلى المغني الغريب.

مايكل جاكسون ظهر على خشبة المسرح مثل غزال، شعر عمي الكبير بالخزي: كيف يسمح لنفسه بحضور حفل لمغن يطيل شعره مثل النساء ويضع حلقة فضية في إحدى أذنيه! جاشت شاعريته، نهض عن كرسيه، أنشد بصوت جهير شيئاً من الشعر العامي اعتاد ترديده على أنغام ربابته في ليالي السهر: ليت المنايا ال تجي يا سلامة/ تدور ع الظالمين دار بدار! جوبه عمي باحتجاجات صاخبة، لم يستجب أحد من جمهور القاعة لإنشاده، ما جعله حانقاً حنقاً أنساه مصلحة ابنه ذي السطوة القوية على الأمريكان، قال: تفوه على هذا الزمان، رجل مثل المرة، مثل المرة والله!

ابن عمي أسقط في يده، كاد الحفل ينتهي قبل أن يبدأ بسبب الحنق الذي تلبس عمي الكبير. مايكل جاكسون، وهو ابن الدولة التي تحكم العالم، لم يتوقع هذا التطاول من عمي الكبير، شعر أنه مهان حتى العظم، (سبحان الله، كأنه يفهم العربية!). أخرج هاتفه النقال من جيبه، قال كلاماً أترجمه الآن إلى العربية: سأتصل بوزير دفاعنا رامسفيلد، سأطلب منه أن يرسل في الحال طائرة من نوع شبح أو طائرتين. عمي الكبير انتفض مثل المجنون وهو يهز عصاه، في وجه المغني الشهير: تهددني يا داشر! أنت تهددني! (سبحان الله، كأنه يفهم الإنجليزية!). مايكل جاكسون أدرك أن شرف الدولة الكبرى لن يسلم من الأذى إن لم يقدم على فعل كبير، ويبدو أنه كان محتاطاً لمثل هذا الأمر، أخرج من تحت ثيابه مسدساً من نوع برابيللو، يتسع مخزنه لأربع عشرة رصاصة، صوّب فوهة المسدس نحو رأس عمي الكبير، سحب عمي عصاه من فوق رأس المغني، قال بهدوء ملتبس وهو يتجه نحو الباب: سأذهب لأداء الصلاة.

مايكل جاكسون ابتهج للنصر المؤزر الذي أحرزه، تحول وجه ابن عمي من الأصفر الفاقع إلى الأحمر المشوب بصفرة مؤسفة. انطلق المغني يغني ويرقص مثل مهر جامح، جمهور القاعة يصفق ويهتز طرباً، وابن عمي يؤكد لي وهو يبرأ من اضطرابه: سأنقل هذا الحي إلى عصر ما بعد الحداثة!

عمي الكبير لم يغب طويلاً. استغرقه الأمر بضع دقائق، تمكن خلالها من خلع شباك المبنى، بمعونة من بعض مريديه المخلصين. دخل من خلف خشبة المسرح، اقترب من مايكل جاكسون ولم يشأ أن يضربه من الخلف ضربة غادرة، لأنه يحترم أصول المشاجرات، صاح في المغني صيحة هادرة: دافع عن نفسك يا ولد. مايكل جاكسون قفز مبتعداً مثل قرد مذعور، حاصره عمي في زاوية المسرح، أهوى بالعصا على رأسه، زاغ المغني عنها في اللحظة الأخيرة، لم يفطن، بسبب الرعب كما يبدو، إلى المسدس الذي خبأه تحت ثيابه. عمي الكبير أمره بحزم: ارفع يديك.

المغني امتثل لكلام عمي الكبير، (سبحان الله، كأنه يفهم العربية!) اقترب منه عمي، انتزع المسدس من تحت ثيابه بحركة بارعة من يده. أقر المغني بهزيمته أمام عمي، عيناه قالتا ذلك بكل وضوح، عمي اكتفى بما قالته عينا المغني، ألقى بالمسدس بعيداً، ثم مضى وهو مرفوع الرأس معتداً بالنصر الذي أحرزه، عمي الكبير غادر القاعة دون أن يقول شيئاً، فالنصر الذي أحرزه غني، كما يبدو، عن أي كلام.

مايكل جاكسون تناسى كل شيء وعاد إلى مواصلة الغناء، صفق له الجمهور بحماس. خرجت بعض فتياتنا إلى خشبة المسرح، رقصن مع المغني الشهير وهن في أتمّ انبساط، رقص الفتيان كذلك بابتهاج، وظل مايكل جاكسون يترنم بالأغنية تلو الأخرى في حينا البائس حتى مطلع الفجر، إي والله، حتى مطلع الفجر!

2003

مذكرة إلى كوفي أنان

عبد الغفار، صاحب أعلى بناية في الحي، البناية التي ثمّرها من عرق جبينه كما يدعي باستمرار، يتمشى فوق سطح البناية وهو يفكر مهموماً بأمر الكلاب الضالة التي تقض مضاجع الحي بنباحها، الذي لا ينقطع طوال الليل، وهي تزعج بنباحها عبد الغفار أكثر من سواه، لأنه يسكن في أعلى موقع في الحي، ما يضطره إلى سماع نباح الكلاب من كل الجهات ولا ينام. عبد الغفار مشغول البال: قلت لأهل الحي تعالوا نشكل لجنة للنظر في أمر هذه الكلاب، إنها ثلاثمائة كلب! لو تعلق الأمر بكلب واحد أو كلبين، لقلنا الأمر هين، لكنها كلاب كثيرة، هربت من الأحياء التي يقوم جيش الاحتلال بإطلاق القذائف على بيوتها دون انقطاع، وجاءت إلى حينا الهادئ لتقيم فيه! (هادئ بفعل الصدفة أو لسبب آخر لا يعرفه عبد الغفار) تشاورت في الأمر مع ابن عمتي عبد الستار، قلت له يا ابن الحلال ومالها اللجنة، إذا كان بولمرت (المقصود إيهود أولمرت رئيس بلدية القدس) يريدنا أن نشكل لجنة لحينا، تمهيداً للنظر في أمر الكلاب، فلماذا لا نشكل اللجنة ونريح رؤوسنا؟ لماذا يا عبد الستار؟

العبيط الجاهل يسألني لماذا؟ أهذا سؤال يُسأل يا عبد الغفار؟ ألم أحذرك منذ أن صادر الإسرائيليون أرضنا وبنوا عليها مستوطنة لليهود للقادمين من بلاد الروس، ألم أقل لك من يومها: لا تفكر يا عبد الغفار بتشكيل لجنة بناء على طلبهم الذي لا يخلو من أغراض خبيثة؟ ألم أقل لك ذلك يا عبد الغفار؟

كم هو متشدد ابن عمتي عبد الستار، يتباهى علينا لأنه يفهم في السياسة. الكلاب الضالة جعلت عيشنا مثل الهباب، وعبد الستار يرفض تشكيل اللجنة. قال يا سيدي، هذا معناه الانصياع لرغبات المحتلين، والظهور بمظهر المتعاون معهم، الراضي عن كل تصرف من تصرفاتهم. ابن عمتي عبد الستار متناقض في سلوكه، يرفض التعامل مع البلدية بخصوص تشكيل اللجنة، ويتعامل مع وزارة الداخلية بهذا الشكل أو ذاك. منذ سنوات وهو يجلس فوق كرسيه وأمامه الآلة الكاتبة فوق الرصيف المقابل لوزارة الداخلية، يطبع الطلبات لمن يريدون أن يجددوا بطاقات الهوية، أو يرغبون في الحصول على تصاريح السفر، أو في استخراج شهادات ميلاد لأطفالهم. أنا لدي تحصيل علمي أفضل من عبد الستار، أنا حصلت على المترك وعملت مدرساً طوال ثلاثين سنة، وعبد الستار لم يدرس في المدرسة أكثر من ست سنوات، يعني تحصيله ابتدائي، ومع ذلك، فهو يتباهى بنفسه ويدعي بأنه يعرف في السياسة أكثر مني! أي طز في هكذا معرفة. منذ أن صادروا أرضنا وعبد الستار يرفض التوجه إلى رئيس البلدية، منذ ذلك الوقت وهو يتوجه إلى الأمم المتحدة، يعني لكي يؤكد لي أنه يعرف في السياسة أكثر مني، يرسل إليها المذكرة تلو الأخرى، وعليها مئات التواقيع، تواقيعنا نحن بطبيعة الحال، للتدخل ولإعادة أرضنا المصادرة إلينا. فلم تقم الأمم المتحدة بأي جهد ملموس، مذكراتنا ذهبت عبثاً، ذهبت أدراج الرياح. عبد الغفار يعيرني دائماً بهذا الأمر، يقول: مذكراتنا ذهبت أدراج الرياح، عبد الغفار ما زال يتذكر أدراج الرياح هذه منذ أن كان يعلم الإنشاء لتلاميذه قبل سنوات طوال، لكنه لا يستطيع أن يخدعني لمجرد أنه ملم ببعض المصطلحات اللغوية، إنه ليس مثقفاً. أنا مثلاً، لم أتمكن من إتمام دراستي بسبب سوء أحوال أبي، لكنني ثقفت نفسي، أقرأ الجريدة كل يوم تقريباً، عبد الغفار لا يقرأ الجريدة، يعتبر ذلك مجرد تضييع للوقت، وهو يعيرني دائماً: ضاعت الأرض، ولم تنفعنا الأمم المتحدة يا عبد الستار، والمستوطنة نمت فوق أرضنا، وجعلت نعمان ابن أختي بنصف عقل، ولولا أن الله سلّم لكان نعمان الآن بين الأموات.

فعلاً، لولا أن الله كتب لي السلامة لكنت الآن بين الأموات، لكنني لست بنصف عقل كما يدعي خالي عبد الغفار وبقية أبناء هذا الحي الملعون. هل الذهاب إلى المستوطنة حرام؟ قولوا لي يا عباد الله. أنا لا أذهب إليها لأي هدف خاص. أنا أذهب إليها للتمشي فوق أرض أبي التي صادرتها سلطات الاحتلال، أتمشى فوقها وأقول لكل من أراه: هذه أرض أبي وهي لي، ومن يقول غير ذلك فهو قوّاد. وأهل الحي، يقولون: آه منك يا ضلالي، تذهب للتلصص على بنات المستوطنين وللتفرج عليهن وهن يخلعن ثيابهن قبل النوم، ولم تتوقف عن ذلك إلى أن خرجوا إليك بالعصي والبنادق! مليح أنهم ما طخوك يا مهبول! مليح أنهم اكتفوا بضربك بالعصي حتى فقدت نصف عقلك. أنا فقدت نصف عقلي؟ فشرتم. أنا ذهبت للتلصص على البنات؟ فشرتم. أنا لي فتاة في الحي، وهي تنتظرني وأنا أنتظرها، بس الحق على أمي وأبي اللذين ما زالا يرفضان خطبتها لي، ويرفضان زواجي منها على سنة الله وسنة رسوله. أنا لا ألوم أمي وأبي فقط، أنا ألوم خالي عبد الغفار كذلك.

الولد نص بني آدم وحيله كبير. قال يا خالي عبد الغفار اخطب لي نهلة، بنت تاجر الأعلاف. قلت له يا نعمان، هذي بنت رجل ميسور الحال، وهي تدرس في الجامعة، ولا يمكن أن تقبل بك زوجاً لها، هذي يمكن عينها على مهندس أو دكتور. ابن أختي، نعمان، قال: عبّود والرب المعبود لن أتزوج إلا نهلة. قلت له امش انقلع، وخليني في همي، الواحد ما عاد يعرف كيف ينام من النباح، وأنت قرقعت لي رأسي، حِلْ عني يا ولد، لازم أفكر في حل لمشكلتنا مع الكلاب.

وفي ليلة ما فيها ضوء قمر، تذكرت الأمين العام، وقلت أين أنت يا ابن عمتي عبد الستار.

ضرب لي تلفون وقال تعال لي في الحال يا عبد الستار. قلت: في هذا الليل الأغبر يا كافي البلاء يا الله! رحت عنده ومعي عدد من أبناء الحي، رأنا نعمان ونحن نمشي بعجلة في الطريق، تبعنا مثل ظلنا، ولم نعره أي انتباه. قلت: ربما وقع شجار بين عبد الغفار وبعض الجيران، أو ربما مرض شخص عزيز في بيت عبد الغفار. وصلنا الدار، قلت خير يا عبد الغفار! قال: أي خير وهذه الكلاب لا تجعلنا ننام يا عبد الستار! انجذب أبناء الحي الذين جاءوا معي فوراً إلى هذا الكلام:

– والله الواحد قرف حياته من كثرة النباح!
– والله الواحد اشتهى يسمع المسلسل مثل الناس. نباح، نباح، طيب بدنا نسمع المسلسل، دخيل الله!
– الواحد مع مرته واولاده بطّل يعرف يحكي. نباح، نباح، ول، شو هاظ!

قال نعمان:
– أي بطلت أقدر أسمع صوت نهلة وهي تغني خلف الشباك.
– دير بالك لتروح نهلة ترمي لك حالها من الشباك.

لم يقل نعمان شيئاً، اكتفى بتحريك سواد عينيه ذات اليمين وذات الشمال، كأنه يقول لنا: آه منكم يا أوباش. قلت وأنا أضرب أخماساً في أسداس غير عارف ما يجول في رأس عبد الغفار:

– والنتيجة، ماذا تقترح يا عبد الغفار؟
– نرسل مذكرة إلى الأمين العام، لعله يتدخل ويخلصنا من هذه الكلاب.
– على الأقل خليني أقدر أسمع صوت نهلة وهي تغني خلف الشباك.
– أسكت يا ولد، نهلتك علة. ما رأيكم في هذا الاقتراح؟
– والله إنه اقتراح معقول.
– أي خلي الواحد يعرف يسمع كويس لما يفتح التلفزيون.

أنا قلت بيني وبين نفسي: هذا عبد الغفار شطّب وما ظل في رأسه عقل مثله مثل نعمان، قلت: لعله يمزح، لكنه كان جاداً تماماً، ثم انفتح الكلام على مصراعيه لأبناء الحي الذين جلبتهم معي، للتحدث عن مآثر الأمين العام.

– اسمه كوفي عنان، والله إنه ابن حلال. هيك، من منظره على التلفزيون أنا أقول إنه ابن حلال.
– شكله تقول عربي، بس ليش اسمه كوفي، ول ع الشيطان، أي هي الأسامي مشترى. لو ان والده سماه مصطفى، مصطفى عنان! أو، لو أنه سماه عبد الرحمن!
– يا خيي، الرجل مش عربي. بدك تقلب طاقيتي انت؟ مش عربي.
– مش عربي، معناه مسلم.
– يا آدمي ولا هو مسلم.
– لعاد، نرسل له رسالة ندعوه فيها إلى الإسلام.
– يا آدمي، لا تهد من أحببت، إن الله يهدي من يشاء.
– أنا سمعت ان الرجل رايح يعلن إسلامه عن قريب.
– يا أوادم، خلونا نركز على موضوعنا. وبعدين يعني!
– أحلف بعيون نهلة، إني امبارح في الليل، شفته ماشي في الحي، ماشي ومتخفي عشان يشوف شو فيه عندنا مشاكل.
– يا ولد يا نعمان، اسكت، اسكت، والله غير تخليه مثل عمر بن الخطاب.
– وحياة نهلة، قلت له مسا الخير يا عمي كوفي عنان. تطلع في وجهي وظل ماشي بدون كلام.
– شفت عاد يا خسيس. هذا مش كوفي عنان.
– أنا بقول كوفي عنان.
– أسكت بلا هبل، أسكت.

قلت في سري: والله ما فيه أهبل غيرك يا عبد الغفار. ماذا جرى لعقلك؟ قلت:
– يا عبد الغفار، كوفي عنان رجل محترم، يعني فكرك إنه ما عنده مشكلة غير الكلاب الضالة التي لا تجعلك تنام!
– يا عبد الستار، خلي عندك شوية عقل، إذاً، لماذا سمّوه: الأمين العام! لأن شغلته وعملته حل المشاكل.
– لاقي لك مشكلة غير مشكلة الكلاب. هذا رجل محترم، وأنت تريد أن تبهدله.
– أنا أريد أن أبهدله؟ أذكر ربك يا عبد الستار. شو فيها إذا شكونا له أمر هذه الكلاب؟ وبعدين مالها الكلاب؟ أليست مثل باقي مخلوقات الله؟ بلاش الكلاب يا سيدي، نقول له: عندنا مشكلة مع الغزلان! نقول له: يا كوفي عنان دبرنا مع هذه الغزلان التي تنبح مثل الكلاب، غزلان مسخوطة والعياذ بالله.

ظل نعمان يضحك حتى انقلب على قفاه. إي والله، ضحكت كما لم أضحك من عشر سنين. ضحكت من كلام خالي عبد الغفار، ومن طريقة عبد الستار في الكلام، عبد الستار يحاول الظهور بمظهر الرجل الذي لا أحد في الحي يجاريه في الفهم. قلت:

– والله إنك مسكين يا عبد الستار.
– سكين تحز رقبتك، لماذا هذا الضحك؟ تضحك من خالك عبد الغفار، ولا تخجل!
– اتركه يضحك يا عبد الستار وقل لي رأيك بكل صراحة ومن غير لف ودوران.

وقبل أن يرد علي عبد الستار، انتبهت إلى شيء لم يحدث طوال الأشهر الماضية: هدوء شامل خيم على الحي، لم يعد ثمة نباح. للمرة الأولى منذ أشهر، يتوقف النباح على هذا النحو العجيب. هل شعرت الكلاب بما ينتظرها من إجراءات حاسمة؟ ربما! قلت معتزاً بالاقتراح الذي قدمته قبل لحظات:

– ملاحظين أنتو والا لأ. توقف نباح الكلاب.
– والله إنه توقف، توقف فعلاً.
– وحياة نهلة الغالية علي، إنه توقف.

قال عبد الستار بصوت لا يخلو من سخرية:
– إذاً لا داعي لمخاطبة الأمين العام الآن.

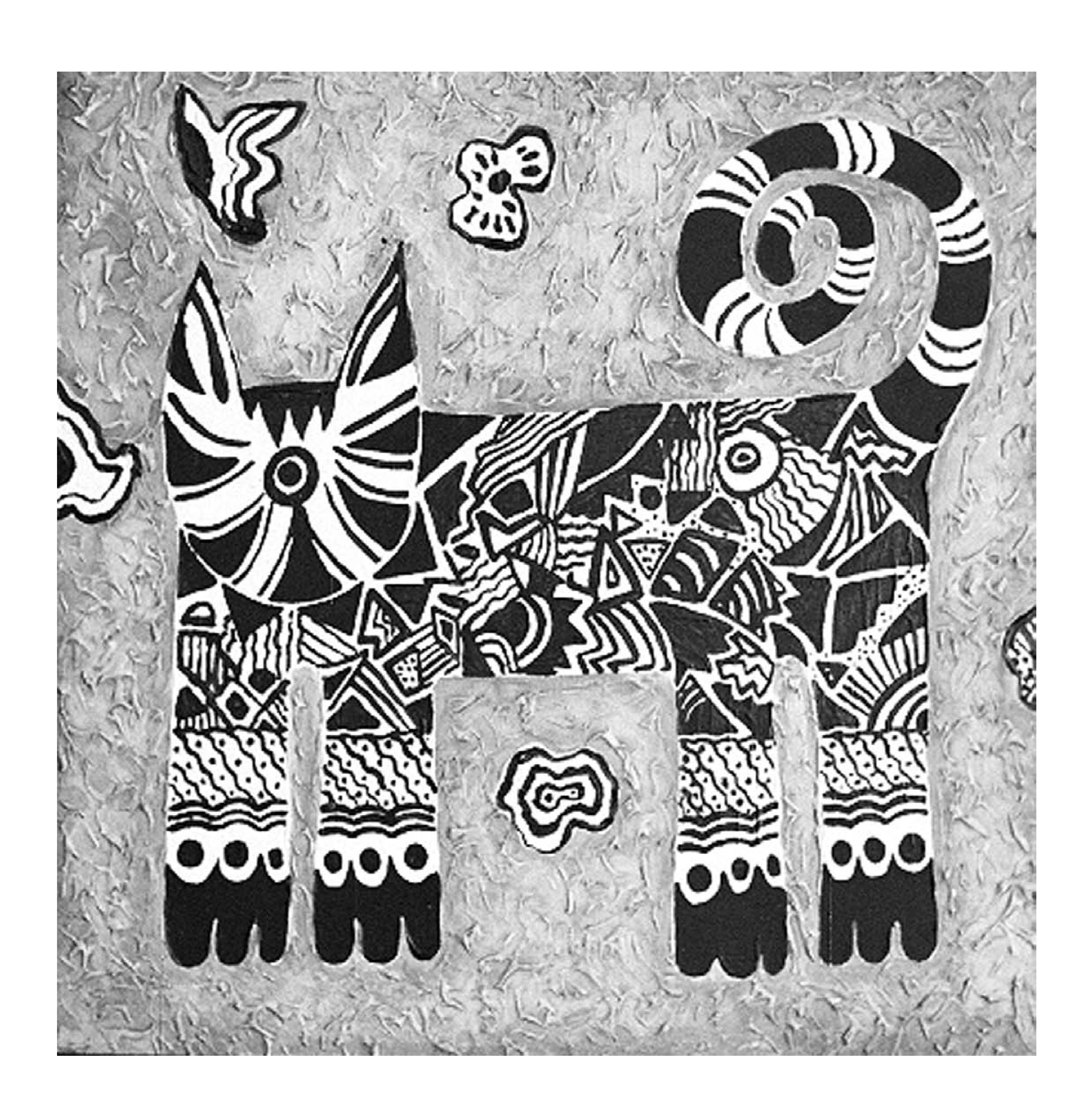
اعترض نعمان:
– نخاطبه، لماذا لا نخاطبه؟
– اسكت يا ولد.
– لا، لن أسكت، أريد أن أتزوج نهلة، وعليه أن يساعدني، سأكتب له حتى يقنع أمي وأبي وأهل نهلة وخالي عبد الغفار، بأن نهلة لي وأنا لنهلة.
– امش، امش أطلع من هون. فكرك الأمين العام فاضي لهبلك ولقلة عقلك.

غادر الجميع بيت عبد الغفار، بمن فيهم نعمان وعبد الستار، نعم، عدت إلى بيتي ورحت أتهيأ للنوم. أما أنا، فقد اتجهت فوراً إلى تحت شباك نهلة، وبقيت ساهراً هناك حتى منتصف الليل.

وأما أهل الحي، فقد أخذوا كلهم تقريباً يستعدون للنوم، وفي تلك اللحظة نفسها، استأنفت الكلاب نباحها من جديد.

2003





كلب بريجيت باردو



عاد عبد الغفار من باريس ومعه كلب.

نعم، الكلب قدمته لي بريجيت باردو، هدية أثناء رحلتي الثالثة إلى باريس. اختارته لي من بين مجموعة كلابها الظريفة، وأوصتني به خيراً. قلت لها: لأنه منك أنت بالذات يا ست بريجيت، فلن يرى مني إلا كل اهتمام. غير أن عبد الغفار شعر بالمهانة ما إن وطئت قدماه أرض مطار اللد عائداً إلى البلاد، شعر بالمهانة لأن تلك هي المرة الأولى التي يصطحب فيها كلباً، ولأن الكلب لا يبدو على قدر من المهابة مثلما هو الحال مع كلاب أخرى. نعم، كلب صغير مثل أرنب خانع، وله أذنان طويلتان متهدلتان نحو الأسفل، ولولا أنني خفت من زعل الست بريجيت لطلبت استبداله بكلب آخر له هيبة الكلاب، غير أن الست بريجيت ضمته إلى صدرها، قبَّلته على أنفه الدقيق عدة مرات، ثم سلمتني الكلب، فقبلته احتراماً للست بريجيت، ومضيت خارجاً بعد أن وعدتني بإرسال دفعة من المال، للعناية بالكلب الصغير وبالكلاب الثلاثمائة التي ساقتها إلينا مدافع قوات الاحتلال.

في المطار، داهمتني رغبة ملحة في ترك الكلب، وفي التنصل من المسؤولية عنه كأنه لا يخصني، وبذلك أنجو من سخرية ابن عمتي عبد الستار، وابن أختي نعمان. لكنني خفت، فقد يقتادني الإسرائيليون إلى السجن بتهمة التسبب في زعزعة أمن المطار. اقتدت الكلب وأنا أتمنى في قرارة نفسي لو أن رجل الأمن يشق بطنه بحثاً عن متفجرات، فأخلص بذلك من عبء تحملته بسبب الست بريجيت. قبض رجل الأمن على الكلب وقال: أيش هذا؟ كلب! مرر جهازاً إليكترونياً على جسده، ولم يُظهر الفحص أيّ شيء غير اعتيادي، فلم يفارق الكلب صاحبه عبد الغفار الذي لم يكن يألف الكلاب أصلاً، ولم يكن يتوقع أن تتعرف إليه بريجيت باردو التي قرأت باهتمام مذكرته التي وجهها إلى الأمين العام للأمم المتحدة، بعد أن نشرتها كبريات الصحف في العالم، وتداولتها محطات التلفزة في أقطار عديدة، مطالباً بوضع حد للكلاب الضالة التي أقضت مضجعه وحرمته من النوم لأشهر طوال، فقررت الكتابة إلى عبد الغفار ودعته إلى زيارتها في باريس. أرسلت له تذكرة السفر وغطت تكاليف الرحلة، وأنزلته ضيفاً عليها في بيتها، وذلك من أجل هدف واحد هو: إقناع عبد الغفار بأن قتل الكلاب حرام.

فاقتنعتُ في الحال، وعدتُ من رحلتي الأولى إلى باريس وأنا متحمس للمحافظة على الكلاب. كنت أعرف أنني سأتعرض لانتقادات لاذعة من عبد الستار، سيقول: ماذا جرى؟ قلبتْ مخك بريجيت باردو؟ وقعتَ في غرامها بعد أن شاب شعر الراس! لم أقل له ذلك بالضبط، لكنني قلت شيئاً قريباً منه، فأنا أعرف أن بريجيت باردو منصرفة الآن إلى العناية بالكلاب وبالقطط (وما أشبه من هذا الكلام، على رأي أحد مذيعي الفضائيات)، غير أنني قلت يا سبحان الواحد الأحد، كيف تغيرتَ يا عبد الغفار! وكيف أصبحتَ متحمساً للكلاب الضالة، لا تجد أي أذى من نباحها المتكرر القبيح! ليس قبيحاً كما تدعي يا عبد الستار، كل ما يتطلبه الأمر هو التعوُّد على سماع النباح!

بعدين، أنا الصحيح، لما شفت كلاب الست بريجيت، قلت والله إن المحافظة على الكلاب أمر واجب! تقولون لي كيف؟ أقول لكم: صدقوا وآمنوا أنني حينما كنت أناقش أمور كلابنا الثلاثمائة مع الست بريجيت، فإن كلابها كانت تصغي لنا بكل احترام، وبعضها كان يضع قائمته الأمامية على صُدغه، يفركه كما لو أنه يفكر في أمر ما، وأنه على وشك أن ينطق يا سبحان الخالق الجبار! عبد الستار لم يصدق هذا الكلام. لم أصدقه طبعاً، هذا خرط حكي. قلت له: خبرنا يا عبد الغفار، كيف وجدت ملكة الإغراء؟ هل ما زال فيها شيء يستهوي القلب! وإلا يا الله حُسْن الختام! نطَّ نعمان المجنون وقال: أنا متأكد أن الست بريجيت ترتدي ملابس شرعية الآن! ثم قلتُ ما هو أكثر من هذا، قلت: أكيد الست بريجيت ما سمحت لخالي عبد الغفار بأن يلمس يدها حينما طرح عليها السلام! خالي فقد عقله وقال: أين سرحت عقولكم يا عباد الله! وقلت: كل الحق عليك يا عبد الستار، لأنك أخذتنا إلى البعيد. عبد الستار قال: لا بعيد ولا قريب.

وقال متباهياً إنه لم يترك فيلماً من أفلام بريجيت باردو إلا شاهده! ثار فضول نعمان وسأل: كيف كانت يا عبد الستار؟ خبرنا! عبد الستار صمت لحظة لكي يشد إليه الأذهان، وقال: كيف كانت! يا عيني! يا عيني، أي والله كان عندها جسد يلوّع قلوب ملايين الشباب! ذات مرة، ظهرت في فيلم وهي نائمة بالزَّلْط فوق رمل الشاطئ، والله بالزَّلْط، يا ربي كما خلقتني، ويا سبحانَ خالق الحُسْن والجمال! تمادى عبد الستار في الكلام، همستُ وأنا أشير نحو باب المطبخ: اخفضْ صوتك، النسوان يسمعنك! ثم قلت وأنا مستاء: من يذكر الست بريجيت بسوء أمامي فسوف أخاصمه إلى يوم القيامة. قال عبد الستار محتجاً: أنا لا أذكرها بسوء، أنا أتحدث عن جمال جسدها الذي شاهدته بعيني هاتين. الصحيح، أن عبد الستار كثير غلبة وثرثار، لذلك قرر عبد الغفار أن يختصر الكلام كلما ورد ذكر بريجيت باردو في ليالي السهر.

وبناء عليه، فهو لن يذكر لأحد من أهل الحي، أن الست بريجيت كانت تجلس أمامه أثناء زيارته الثانية لباريس، وهي في بنطال قصير يكشف عن فخذيها، تعرضهما أمام عبد الغفار بكل أريحية ودون حرج! كان عبد الغفار يغض الطرف عن فخذيها اللذين ما زالا يحتفظان بألق ما، ويتشاغل بالنظر إما إلى سقف الصالة، وإماً إلى الكلاب الجالسة في صمت، تصغي إلى عبد الغفار، وهو يشرح تفاصيل البروبوزال الذي قدمه إلى الست، متضمناً حاجته إلى مائة ألف دولار، لترويض كلاب الحي (حيّنا) وتعليمها، وفقَ أحدث الأساليب، كيف تخفف من نباحها، وكيف تضع قوائمها الأمامية على أصداغها، كما لو أنها تفكر في كلام ستقوله بعد لحظات. آنذاك، لم يكن هذا الكلب الصغير قد لفت انتباه عبد الغفار. لكنه يسير إلى جواره الآن، وحينما يصل البيت ومعه هذا الكلب الأرنب، فقد يسلقه عبد



الستار بسخريات لها أول وليس لها آخر.

استهجنتُ بالفعل أن أرى عبد الغفار داخلاً الحي ومعه كلب صغير. لم تكن تلك عادته، وكنتُ سمعته غير مرة، وهو يسخر من الخواجات الذين يصطحبون معهم الكلاب أثناء تجوالهم المسائي في الشوارع. لكن، سبحان مغير الأحوال! ولم أقل سوى شيء واحد: هذا الكلب يشبه الكلبين اللذين يملكهما الرئيس بوش!

حينما سمعتُ هذا التعليق الذي أطلقه عبد الستار، تغيرت نظرتي للكلب على طول الخط. حدقت فيه بتأمل وانتباه، فوجدت أنه شبيه بكلبَي الرئيس بالفعل، فكأنه رضع معهما من ثدي واحد، مع فارق وحيد: كلبي ليست له شهرة كلبَي الرئيس. فقد كان العالم كله يحبس أنفاسه، منتظراً قرار الرئيس بغزو العراق، فيما هو يلعب مع كلبيه في حديقة البيت الأبيض أمام كاميرات التلفزة، التي بثت صوراً له ولكلبيه، لن ينساها ملايين النساء والرجال، ومن بينهم عبد الغفار بطبيعة الحال.

عبد الغفار اكتشف في كلبه مزايا كثيرة: فهو لا ينبح إلا نادراً، وإن نبح فإنه يفعل ذلك باعتدال، وبصوت خافت لا يخدش الأذن. وهو محبٌّ لسيده مُتفانٍ في خدمته، يُحضر لعبد الغفار الشبشب كل صباح لكي ينتعله ويذهب إلى الحمام، يتقافز من حول عبد الغفار محاولاً الوصول إلى المنشفة المعلقة على الحائط، لكي يناولها لسيده. وما هو أهم من ذلك، أنه يصغي بانتباه حينما يشرع عبد الغفار في الكلام، ثم يضع قائمته الأمامية على صدغه، كأنه يفكر بكلام سيقوله بعد لحظات.

عبد الغفار اعتاد في بعض الأمسيات، على اصطحاب كلبه متجهاً معه نحو حديقة بيته الخلفية. هناك، يلعب بالكرة مع الكلب، تماماً مثلما يفعل الرئيس بوش مع كلبيه. كان عبد الغفار يشعر بالنشوة وهو يتماهى مع الرئيس في أمر واحد على الأقل: اللعب مع الكلاب. لكن عبد الغفار كان يعترف في قرارة نفسه، بأن الرئيس أقوى منه، لسبب بسيط، وهو أن لدى الرئيس كلبين، وليس لدى عبد الغفار سوى كلب واحد.

عبد الغفار افتقد كلبه الوحيد ذات صباح ولم يجده. راجت شائعات كثيرة محيرة حول الكلب: قيل إن نعمان سرقه، ذبحه، سلخ جلده وباع لحمه لسكان المستوطنة المجاورة. وقيل إنه سرقه، ثم صعد إلى شباك حبيبته نهلة، رمى الكلب نحوها، معتبراً أنه يقدم لها هدية معتبرة، صرخت نهلة من شدة الخوف، دخل عليها الغرفة والدُها تاجر الأعلاف، وجد عندها كلباً يحاول الاقتراب من سريرها، تفحصه بعينين خبيرتين فأيقن أنه كلب عريق النسب، استبقاه في البيت عدة أيام، ثم قدمه هدية لأحد أصدقائه من علية القوم. وقيل إن الكلب ملّ اللعب بالكرة مع عبد الغفار، فمضى يضرب في الأرض عائداً إلى باريس، إلى حضن بريجيت باردو بالذات. وقيل إن الرئيس بوش شوهد ذات مساء يتمشى في حديقة البيت الأبيض، وخلفه ثلاثة كلاب صغيرة، تتبعه بتؤدة ووقار.

2003

مشية نعومي كامبل



رآها أبوها وهي تجتاز البوابة الكبيرة عائدة من الجامعة إلى البيت، جسدها محشور في بنطال أزرق، والهاتف النقّال على أذنها تتلقى مكالمة جاءتها للتوّ، كما يبدو، وشعرها الطويل الناعم يرف على جبينها وكتفيها. لم يعرف إلا بعد وقت قصير أن بنطالها خلق مشكلة في الحي، نهلة عرفت أن ثمة مشكلة وقعت دون قصد مسبق، كم تكره هذا الحي! تكرهه لواحد وأربعين سبباً، (ليس لديها وقت لتوضيح هذه الأسباب!) تذهب إلى الجامعة في الصباح، تجتاز ثلاثة حواجز عسكرية وأحياناً أربعة للوصول إليها، وبعد الظهر بقليل تغادرها عبر الطريق نفسها التي سلكتها في الصباح، تتكدس على الحواجز نفسها مع أصناف عديدة من البشر، تدخل القدس بعد مكابدة مرهقة، وتتجه مباشرة إلى بيتها الواقع في إحدى ضواحي المدينة، تشعر أنها تدخل منطقة يتجاور فيها المعقول واللامعقول.

نعمان المهبول هو الذي بدأ المشكلة، ورباح الأزعر هو الذي كان السبب. حينما مرت نهلة في الشارع المؤدي إلى بيتها، لفتت أنظار الشبان المتجمهرين على الرصيف. حدقوا في جسدها بنهم، وزادتهم نهماً، ملابسُ نهلة التي تثير الانتباه، أو هذا على الأقل ما يشعر به الشبان: فساتين ناعمة مثيرة متنوعة، بناطيل فضفاضة، وهذه المرة بنطال جينز أزرق تظهر فيه نهلة للمرة الأولى كما يبدو، أو هذا على الأقل ما اعتقده حبيبها نعمان، نعمان يحب نهلة ويموت فيها، نهلة لا تحبه ولا تموت فيه، أو هذا ما يقوله له أصحابه، وهو لا يصدقهم ولا يقتنع بكلامهم، يؤكد أن نهلة تحبه، وهي تكتم حبها ولن تفصح عنه إلا بعد الانتهاء من دراستها في الجامعة.

رباح الأزعر لم يستطع لجم ما في نفسه من انطباعات، وهو يرى نهلة، ابنة تاجر الأعلاف، تتخطر في الشارع، تميل بردفيها العامرين ذات اليمين وذات الشمال، اعتقد أن تعليقاً سريعاً على المشهد الفتان، سَيُدخل إلى رصيده عدداً من النقاط: يلفت انتباه نهلة إليه، ويجعلها تضعه في حساباتها وهي تفكر في الشباب، يُشعرها أنه ذو ثقافة لا بأس بها، و في الوقت نفسه يُدخل المسرة إلى نفسها، لقناعته أن البنات يحببن الإطراء على جمالهن وعلى حُسن منظرهن، كذلك، فإنه يسجل تفوقاً على أقرانه الذين لا يستطيعون مجاراته في التغزل بالبنات، قال معلقاً على مشية نهلة بصوت اخترق أذنيها دون استئذان: مشية نعومي كامبل ما شاء الله!

نهلة ابتعدت عن الشبان متقدمة نحو البيت، لم تفه بأية كلمة. ظلت تمشي المشية نفسها، ولم يفز رباح الأزعر إلا بلكمة عنيفة سددها نعمان نحو أنفه، صرخ رباح مستفزاً مما وقع له، التفتت نهلة إلى الخلف لترى ما الذي حدث، واصلت سيرها، واشتبك رباح الأزعر مع نعمان المهبول في صراع ضار، لم يقتصر أثره عليهما وحدهما، التمّ أهل نعمان وأقاربه لنجدته، وكذلك فعل أهل رباح الأزعر وأقاربهً. وقع شجار كبير في الحي، سببه بنطال نهلة، التي تستعرض نفسها أمام شبان الحي، وتمشي متمايلة مثل نعومي كامبل، أو هذا ما تفتقت عنه قريحة رباح الأزعر بهذا الشكل الذي فاجأ نعمان!

وصل الخبر إلى أبيها الذي أدرك أنه أمام مشكلة مثلثة الأضلاع. وجد أن السكوت على الأمر سيلحق به عاراً حتى الممات، ومن قال إنه مستعد للسكوت على هكذا خبر! فكر أن يمتطي سيارته المارسيدس، يخرج بها إلى الشارع، يدوس كل من يجده في طريقه من عائلة الأزعر، لأنه من غير المقبول أن يجري تشبيه ابنته بامرأة يبدو من سياق الكلام أنها محاطة بالشبهات، أو يبدو أنها تمشي في طرق بطّالة يندى لها الجبين، وهو لا يقبل أن يُمسَّ شرف ابنته بأي حال.

استبعد تاجر الأعلاف فكرة الخروج للقتال في سيارة المارسيدس، لأنها سيارة جديدة اشتراها قبل أشهر، وقد يتمكن أبناء عائلة الأزعر من التزويغ من أمام السيارة، فلا يتمكن التاجر من الدوس عليهم، ومن ثم، سينهالون على السيارة الفاخرة بالحجارة، ستصبح هدفاً سهلاً لحجارتهم، ويخرج التاجر خاسراً من هذه الجولة غير المدروسة، وغير المخطط لها على نحو صحيح.

نظر التاجر إلى سيف جده المركون على الحائط، السيف مستقر في موقعه في سكون ودعة، بعد أن استحال إلى قطعة ديكور، لا يتقلده أحد ولا يجرؤ أحد على الخروج به إلى الأماكن العامة، لأن ذلك سيؤدي إلى مصادرة السيف وإلى وضع حامله في الحبس. أنزل السيف عن الحائط غير عابئ بما قد يقع، أزال عنه الغبار المتراكم عليه بفعل الزمن، اتجه إلى الحظيرة التي يربط فيها الفرس، الفرس التي اشتراها من بدوي عضه الجوع بنابه، وراح يركبها في أيام العطل والأعياد للمباهاة، ولتذكير أهل الحي بأنه سليل أسرة عريقة. تقلد سيفه وركب الفرس وصاح منادياً أبناء العائلة: وين راحوا النشامى! جاءته الصيحات من كل جانب: لعينيك! أبشر!

خرج التاجر إلى القتال ومعه أربعون شخصاً من أبناء العائلة، مسلحين بالعصي وسلاسل الحديد، وكان في عدادهم الطبيب الشاب الذي أنهى علومه في إحدى الجامعات التركية. تجمعوا في الساحة العامة، وبدوا مثل جيش في مسلسل تلفزيوني عربي فقير الإنتاج. لم يجد التاجر أحداً من عائلة الأزعر في الشارع أو حول البيوت، شعر بارتياح لم يفصح عنه لأحد، قال لأبناء عائلته: يبدو أن أحداً نقل لهم خبراً عن تقدمنا نحوهم. جرّد السيف من غمده، لوّح به في الفضاء معلناً بدء الغزو، نكز بطن الفرس، فانطلقت مسرعة، ظل أبناء العائلة ثابتين في مواقعهم لأنهم لم يروا أحداً يتشاجرون معه. لم يشأ أبناء عائلة الأزعر اعتراض التاجر وهو يقترب من بيوتهم، لحكمة ما! تركوه يصول ويجول في الشارع وحده، مع أنه كان بوسعهم وهم كامنون فوق أسطحة بيوتهم أن يدموا رأسه بالحجارة، غير أنهم لم يفعلوا. التاجر وهو يكرّ على مقربة من بيوتهم المرة تلو الأخرى، متظاهراً بأنه يتحداهم بجرأة واقتدار، اعتبر أن غزوته حققت المراد منها، فلم يشأ أن يتمادى فيها، وجد أن من الأنسب له ولأبناء عائلته أن ينسحبوا بهدوء، إلا أن سيارة جيب عسكرية فاجأته قبل أن يعلن خطته على أبناء العائلة. أبناء العائلة بدوا كأنهم قرأوا الخطة قبل أن يعلنها عليهم، فانسحبوا كما لو أن شيئاً لم يكن.

التاجر لم يتمكن من الانسحاب، لأن جيب العسكر اقترب منه وسدّ عليه الطريق. التاجر لم يتمكن من إعادة السيف إلى غمده المستقر على جانبه الأيسر تحت عباءته، مثل هذا الأمر يتطلب منه أن يرفع يده التي تقبض على السيف، إلى أعلى، مديراً رأس السيف إلى أسفل لكي يأخذ طريقه إلى داخل الغمد، آنذاك يكون الجنود قد هبطوا من الجيب ورأوا السيف، سارع التاجر إلى إخفائه تحت ساقه التي تضغط على بطن الفرس، مسدلاً عباءته بإحكام فوق جسمه. قال الجندي:

– هل وقع شجار هنا؟

– لا، لم يقع شجار!

– هل يوجد سلاح هنا؟

– لا، لا يوجد سلاح.

– أنت! هل معك مسدس؟

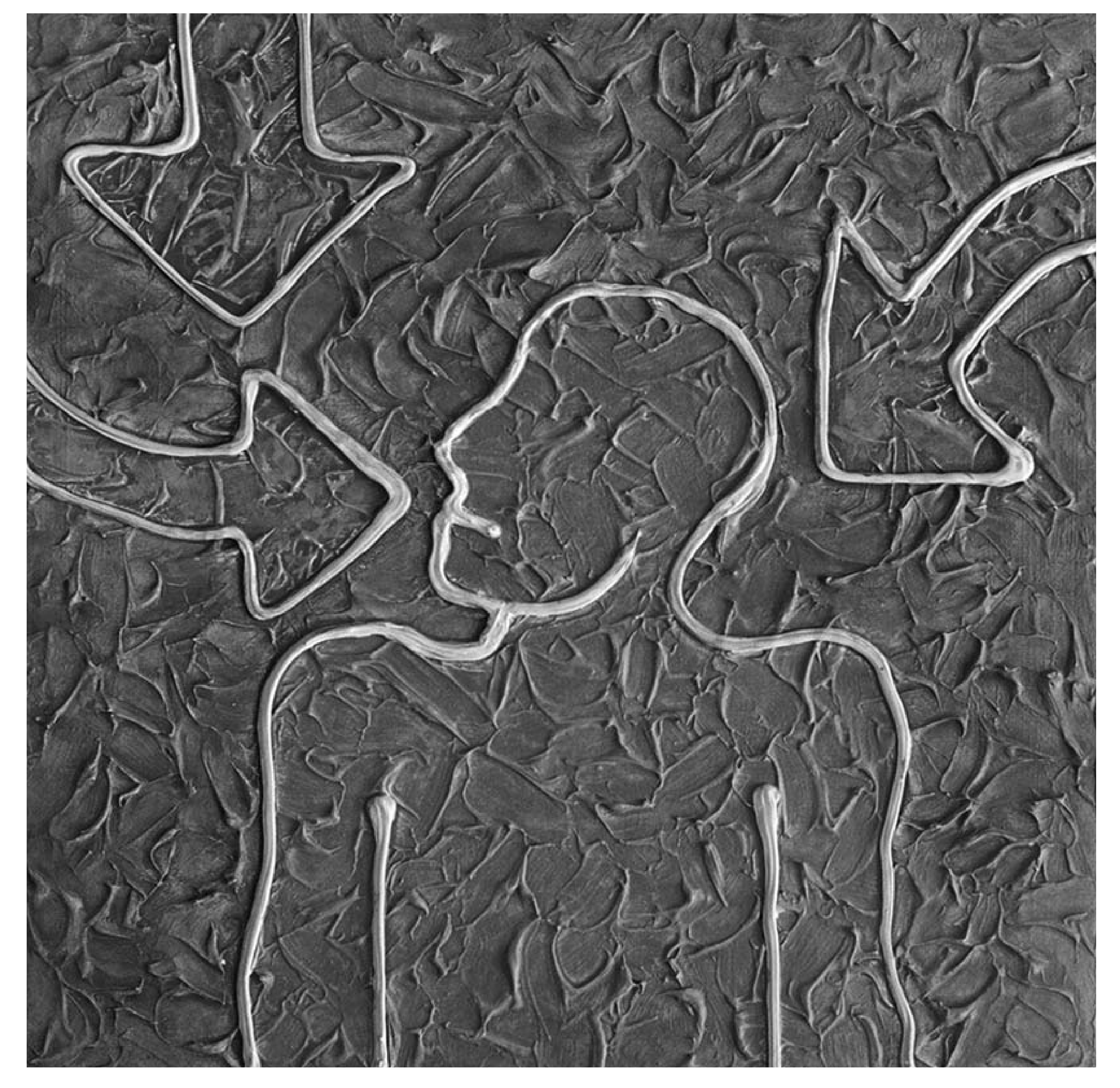
– لا، ما معي مسدس.

الفرس، في هذه الأثناء، لم يرقْ لها أن تثبت في موقعها بلا حراك، راحت تحرك رقبتها في شموخ وترقّص في الوقت نفسه قوائمها المحجلة، ومع كل رقصة من رقصاتها يصطدم السيف بساق التاجر ويدميها في غير موقع، والتاجر محتملٌ الألم منتظرٌ أن ينصرف من أمامه جيب العسكر. دار الجندي حول الفرس دورة كاملة، تأمل الفرس والفارس، ثم استدار، صفق باب الجيب وراءه، وعاد التاجر إلى البيت وساقه تقطر دماً.

أبناء العائلة، وفي طليعتهم الطبيب الشاب الذي أنهى علومه في إحدى الجامعات التركية، أسعفوا تاجر الأعلاف وهو متذمر مملوء بالاستياء، ضمدوا ساقه بلفافة من قماش أبيض، وجلسوا حوله في المضافة يخففون من وطأة استيائه. حاول استرجاع المشهد من بداياته لعله يعثر على ما يطمئنه:

– شو اسمها؟ نعومي!

ردّ الطبيب الشاب:



– أيوه، نعومي كامبل.
– وشو بتطلع هذي من غير شر؟
– عارضة أزياء مشهورة! أنا بشوفها ع التلفزيون.
– يعني ممشاها عاطل؟
– الله أعلم! بس أنا ما سمعت عنها أي إشي عاطل.
– ومن وين هي من غير شر؟
– من بلاد الانجليز.

الأخ غير الشقيق لتاجر الأعلاف، عبد الباسط الذي يدعي معرفته بأنساب المدينة وأحيائها المختلفة، لم يعجبه الكلام. وجد فيه تحدياً لعلمه ومعارفه. قال للطبيب الشاب:

– انت متوهم! لا هي من بلاد الانجليز ولا من بلاد الطليان.

سكت الطبيب لائماً نفسه لأنه شارك في الكلام. قال التاجر:

– والا من وين هي يا عبد الباسط؟

ردّ عبد الباسط على أخيه غير الشقيق:

– بتذكر يا عبد الله الشاب اليافاوي، اللي كان يشتغل في فرن محمد الخليلي في طريق الواد!
– بذكره، اسمه كامل!
– صدقت، كامل عبد الحي. وكان عنده بنت سمرا صغيرة اسمها نعمة!
– يعني بدك تقول لي إنها نعومي هي بنت أجير الفران؟
– أيوه، واسمها نعمة كامل عبد الحي.
– نعومي كامبل! بنت أجير الفران!
– أيوه، أبوها أخذها هي وأمها وأخوتها وهاجروا إلى الخارج.

ثار لغط حول هذه المفاجأة التي طلع بها عبد الباسط، الطبيب الشاب المدمن على مشاهدة التلفاز لم يحتمل السكوت على هذا الكلام المغلوط، حاول اصطياد فرصة مواتية للكلام، فلم يظفر بالفرصة المنشودة، ولام نفسه لأنه شارك في مشاجرة بائسة لا تسرّ الصديق ولا تغيظ العدى، لكنه في اللحظة التالية خفف من لومه لنفسه، وأدرك أنه مضطر لمجاراة أبناء العائلة خوفاً من اتهامه بأنه جبان! تذمر عبد الله من تشابك الأصوات، قال:

– فضوا هذه السيرة واتركونا من هالموضوع!

خمدت الأصوات، ولم يغادر أحد المضافة احتراماً لعبد الله ومحاولة للتسرية عنه. عبد الله لاذ بالصمت وراح يشتم في سره ابنته نهلة، لأنها لا تقبل مشورته إلا بصعوبة. اقترح عليها أن تتزوج حينما جاءها عدد من الخطّاب. رفضتهم جميعاً! وقالت إنها تريد متابعة دراستها في الجامعة. طيب، راحت إلى الجامعة، وصرنا نسمع حكي، والحكي على مين؟ على نهلة. نهلة اليوم طلعت بفستان قصير، نهلة اليوم طلعت ببلوزة تكشف صدرها، نهلة اليوم لابسة بنطلون جينز. وما ظل علينا غير رباح الأزعر يقول انها مثل نعومي كامل عبد الحي بنت أجير الفران! والأدهى والأمرّ، هذا المهبول نعمان، هو متعلق بالبنت، يراقبها كلما خرجت وكلما عادت. قال أيش، نعمان يحب نهلة، ويريد التقدم لخطبتها بعد إتمام دراستها الجامعية، ونهلة لا هي حاسّة فيه ولا سائلة عنه! ابن الحرام، لو أنه لم يضرب ابن الحرام. لو أنه عمل حاله مش سامع حينما قال الأزعر ما قال، لما وقعت مشكلة، لكن لا! لازم يضربه على وجهه، ولازم تصير مشكلة، ولازم الحي كله يسمع في اللي صار، والكل يسأل: شو سبب المشكلة؟ سبب المشكلة بنت التاجر عبد الله. سببها بنطلون بنت التاجر، سببها ان بنت التاجر لا تمشي مشية عادية مثل بنات الناس، لازم البنت تتطعوج وهي ماشية! مثل نعمة كامل عبد الحي، بنت أجير الفران!

لم يستطع التاجر ضبط انفعاله ولا كتمان غضبه. شعر أنه يتآكل من داخله، نهض متجهاً نحو السيف، خانته ساقه الجريحه، فلم يتقدم إلا بصعوبة، وقف أبناء العائلة واحتشدوا جميعاً من حوله، وفي عدادهم الطبيب الشاب. ظنوا أنه راغب في شن غارة جديدة على عائلة الأزعر، أو على عائلة نعمان الذي تسبب في الفضيحة. كادوا يهتفون بصوت واحد: لعينيك، أبشر! غير أنه قال:

– أحضروا لي بنطلون نهلة، هذا البنطلون هو سبب ما جرى، سأمزقه بالسيف وأستريح!

اعتقد التاجر أن خطوة كهذه، ستظهره أمام أبناء العائلة فتاكاً لا يرحم، وستساعد على ترميم السمعة نوعاً ما، وإدخال شيء من الخوف إلى قلب نهلة. مضى ثلاثة من أخوتها نحو غرفة نومها، وجدوا هاتفها النقال على أذنها وهي منهمكة في الرد على مكالمة وصلتها للتوّ كما يبدو. الأخوة الثلاثة انهمكوا يفتشون خزانة ثيابها بحثاً عن البنطال، وهي منشغلة في الرد على المكالمة بكلام عذب خافت وبضحكات متقطعة، الأخوة الثلاثة يواصلون البحث عن البنطال، فلا يعثرون عليه، ينتبهون إلى جسد أختهم، يلاحظون أنها ما زالت ترتدي البنطال! انتظروا بعض الوقت حتى انتهت من الكلام مع صديقتها (كما يبدو). قال الأخ الأكبر مشيراً إلى البنطال:

– اخلعيه!
– أيش بتقول؟
– أبي يريده لكي يمزقه بالسيف!

بدا في عينيها عجبٌ ما، قالت بهدوء مباغت:

– استريحوا أنتم، سأذهب إليه بنفسي.

اتجهت نحو المضافة غير مكترثة بالعواقب. دخلت على الرجال المحتشدين حول أبيها، حدقت في وجوههم باستغراب. حدقوا فيها بفضول، رأوا فتاة جميلة وادعة النظرات، شعروا بالحرج. تأملها أبوها باندهاش، لم يتوقع أن تدخل المضافة وهي غاصة بالرجال. لإنها بذلك، تكسر القاعدة المتبعة لدى نساء العائلة. شعر تاجر الأعلاف أنه مكبل اليدين، رمى السيف نحو ركن المضافة وهو عاجز عن فعل أي شيء، حنى الطبيب الشاب رأسه احتراماً لهذا القرار. قال التاجر لابنته:

– ابتعدي من هنا، ابتعدي!

ابتعدت نهلة، عادت إلى غرفتها، خلعت بنطالها ونامت في سريرها، ولم ينم أبوها ورجال العائلة، وفي عدادهم الطبيب الشاب، حتى الصباح.

2004

ما بعد صورة شاكيرا

حينما نشرتُ «صورة شاكيرا» في صحيفة عربية تصدر في إحدى العواصم الأوربية، لم أتوقع أن يكون للقصة ما بعدها.

غير أن الوقائع كذبتني، وبدا أنه لا بد لي من تقبّل كل ما له علاقة بما بعد صورة شاكيرا.

ابتدأ هذا ال «ما بعد» حينما أعدت نشر القصة في صحيفة محلية، لأن الصحيفة العربية المنوه عنها أعلاه لا تستطيع الدخول إلى هذا البلد لأسباب أظنها معروفة، قلت: أعيد نشرها لعل أحداً هنا يقرأها أو يهتم بها. وبالفعل لم تعدم القصة مَنْ يهتم بها! فقد التقيت أحد الزملاء ممن لهم اهتمام بالشأن العام، عند حاجز قلندية ذات ظهيرة قائظة. وقفنا في الطابور الطويل ننتظر فرصة لعبور الحاجز، وبعد نصف ساعة من الثرثرة التي ساعدتنا على قطع الوقت، قال زميلي: رأيت مقالة لك في الصحيفة! قلت مصححاً: تقصد قصة! قال: أظنها قصة، نعم، نعم، قصة! وراح يستجمع شتات ذاكرته ثم أضاف: صورة شكورا! هل هذا صحيح؟ لم أشأ أن أصحح كلامه مرة أخرى، قلت: صحيح. ابتسم على نحو يوحي بأنه معتد بقوة ذاكرته وبسعة اطلاعه، قال: عَمْ بقول لك، بعيني هاتين رأيت القصة! لم أسأله إن كان قرأ القصة بعد أن رآها بعينيه، لأنه سألني على الفور: هل دفعت لك الصحيفة شيئاً؟ أجبت بالنفي. قال: يعني لا حمداً ولا شكورا! أدرك أن كلامه انحبك مع عنوان القصة الذي استله من ذاكرته، أطلق ضحكة مجلجلة جعلت جنود الحاجز يرسلون إليه نظرات زاجرة، قال وقد راق مزاجه: الحق عليك، يعني لازم تسميها صورة شكورا! قهقه من جديد كأنه يشمت بي. صاح أحد الجنود محذراً: شيكت! ضَحِكْ وَحكي مشْ لازم! سكت زميلي مضطراً، وواصلنا التقدم ببطء شديد! تمنيت يومها ألا أسمع أي تعليق آخر على القصة.

غير أن صاحب الحانوت الوحيد في حيّنا، لم يترك الأمور تجري مجراها الساكن الرتيب. اشترى رزمة من الصحف القديمة ليستخدمها في لفّ بضاعته التي يبيعها للنسوة وللأطفال. وإمعاناً منه في الاستفادة من هذه الصحف، وجد أن بوسعه تصفحها أثناء انقطاع الزبائن عن حانوته، فعل ذلك وهو جالس صحبة ثلاثة من أبناء الحي العاطلين من العمل. رأى البائع صورة جميلة لامرأة شابة، قرأ اسمها: شاكيرا! أعجبه جمال المرأة، قص الصورة واحتفظ بها في جيبه لسبب لم يفصح عنه، وحينما قرأ اسمي مكتوباً تحت عنوان القصة، انكب على القصة يقرأها لسبب وحيد كما قيل لي في ما بعد، وهو أنني كاتبها. غير أن البائع لم يستطع قراءة القصة كلها، قرأ سطراً هنا وسطراً هناك ثم أدركه الملل، رمى الصحيفة وانطلق يثرثر مع الرجال الثلاثة حول ما قرأه، فاختلط الكلام بالكلام.

بعد ذلك بيوم واحد راجت شائعة في الحي تقول إنني متزوج، سرّاً، من راقصة تقيم في بلاد بعيدة اسمها كولومبيا، ولي منها ولد وثلاث بنات، واحدة من البنات خرساء، وتضيف الشائعة أن للراقصة أربع بنات من زواجها السابق، وبذا فإن المجموع الكلي لنسل الراقصة: سبع بنات وولد. (سبحان الواحد الأحد صاحب الحكمة والتدبير!) قيل يومها إن ثمة مَنْ يشفق عليّ في الحي، لأن الإنفاق على سبع بنات وولد في مثل ظروفنا التي نحياها يعتبر أمراً غير هين بتاتاً! تلهيتُ بهذه الشائعة يوماً أو يومين ثم أهملتها، ولم يهملها بعض أهل الحي.

بعد ثلاثة أيام، رن جرس الهاتف في بيتي.



– تعرف مين بتحكي معك؟
– لا والله لا أعرف.
– أنا أم شكرية! بتعرف شكرية؟
– لا والله لا أعرفها.
– شكرية الممرضة اللي في الكوبات حوليم، ما بتعرفها؟
– والله لا أعرفها.
– والاّ يا سافل كيف بتكتب عنها في الجريدة، انها فالتة وما خلّتْ دَف الاّ رقصتْ عليه!
– يا خالتي الله يسعدك، قولي غير هذا الكلام!
– اسمع لما اقول لك: بنتي مش مقطوعة من شجرة! بنتي وراها رجال، الواحد منهم مثل السبع!

حاولتُ تهدئة الموقف، غير أن المرأة قطعت المكالمة وتركتني عرضة لأنياب السباع، ولولا تدخل المجلس العشائري الذي يسهر على شؤون الحي، لذهبتُ ضحية سوء الفهم الذي وقع من دون أن تكون لي يدٌ فيه، ولم يخفف من نكدي سوى زيارة مفاجئة إلى بيتي، قام بها المغني الذي لا تتجاوز شهرته حدود الحي، رحبت به لعل وراءه خبراً ساراً! قال:

– سمعت أنك على علاقة طيبة مع شاكيرا.
– أراها على شاشة التلفزيون وهي تغني، وهذا كل ما في الأمر.
– بس أنا متأكد أنك تستطيع التأثير عليها.
– طيب، لنفرض ذلك، ما الذي تريده؟
– عندي رغبة في الظهور معها في ألبوم غنائي مشترك!

أخبرني أن ألبومه الثاني حظي باهتمام عشاق الغناء، قال إنه أرسل نسخة منه إلى نانسي عجرم فأبدت إعجابها به، قال إن نانسي عجرم اقترحت عليه أن تظهر معه في ألبوم مشترك، غير أنه ما زال متردداً. راح يخلط كلاماً في كلام، قال إن مشكلته تكمن في كثرة تردده، أسرّ لي أن ثمة احتمالاً مؤكداً بأن يشارك في الحكومة الجديدة، وقد تُسند إليه وزارة الداخلية التي طال الجدل حولها، قال إنه الوحيد القادر على التفاهم مع حماس، غير أنه متردد في قبول المنصب، فإذا ما حسم تردده وقبل المنصب فسوف يصرفه ذلك عن مواصلة الغناء، وهو يرى أن الفن أكثر أهمية من المناصب الوزارية، (بعد ذلك بثلاثة أيام، أعلنت أسماء الوزراء في الحكومة الجديدة ولم يكن اسمه مدرجاً بين الأسماء) حينما لاحظ أنني لم أتمكن من مغالبة الضحك، قال لي: اضحكْ كما تريد، ولكنك ستتأكد من صدق كلامي في وقت قريب! قلت مدارياً حرجي: اعذرني، داهمني الضحك لأنني تذكرت نكتة رواها لي أحد الأصدقاء، ولم يقنعه كلامي، قال: إياك أن تستهين بي، بعد ثلاثة أشهر أدخل الأربعين، وهذا هو سن النضج كما تعلم. أخبرني أنه عرضة لمؤامرات عديدة، قال إن الصحيفة المحلية تتجاهله وتعتِّم على أخباره، وإن محرر الصفحة الفنية في الصحيفة يحقد عليه، لأنه كان متفوقاً عليه في كل الدروس أيام المدرسة. أخبرني أنه وضع هذا الأمر بين يدي مجلس العائلة، عائلته، وبعد مداولات سريعة، قرر المجلس إرسال عدد من أبناء العائلة لمعاقبة المحرر الفني. ذهب أربعة من الشباب الصناديد ومعهم العصي، كمنوا للمحرر في الليل منتظرين عودته من عمله في الصحيفة، أطعموه بدن لن ينساه إلى أن يتوفاه الله، نام في المستشفى سبعة أيام. بعد ذلك، تمت تسوية الأمر، تدخل المجلس العشائري، طبطبَ الموضوع وجرت مصالحة عشائرية، حيث أظهرت عائلة المحرر الفني كرماً عربياً حاتمياً أصيلاً، تمثل بالتنازل عما لها من حقوق لابنها المضروب! الابن المضروب تعهد أمام الجميع بأنه سيهتم بأخبار المغني، وسينشرها تباعاً في الصحيفة ابتداء من مطلع الشهر القادم. قال لي المغني مطمئناً:

– هذا التجاهل لن يستمر، بعد أيام رايح تقرا أخبار سارة.

بعد صمت دام لحظات، أضاف:

– أرجو ألا تتجاهل طلبي!

تمعنت قليلاً في معنى كلامه!

– وإن تجاهلت طلبك، ماذا ستفعل؟

حاول تلطيف الموقف:

– أنا أحكي معك بالأمل.

قلت محاولاً إحراجه:

– هل تعرف شيئاً عن أخبار عمرو دياب؟
– إيه، هذا صاحبي، أرسلت له ألبومي الثاني وأعجبه!
– هل تعلم أنه عرض على شاكيرا مليون ونصف المليون دولار من أجل أن تظهر معه في ألبوم مشترك؟
– هذا الحكي لا أعلم عنه. أما بالنسبة لي فأنا غير مستعد للدفع! وإذا لم توافق شاكيرا على اقتراحي فسوف ألجأ إلى أسلوب آخر!
– ماذا ستفعل؟ قل لي.
– اترك هذا الأمر إلى وقته المناسب.

بدا صامتاً كأنه يُجري تعديلاً ما على خططه. قلت:

– ماذا تريد مني الآن؟
– سلامتك. ما أريده سيتحقق غصباً عنك!
– عدتَ إلى لغة التهديد!

نهض بهدوء، وفيما هو متجه نحو الباب قال:

– أنا لا أهددك، صدقني، ولكنك ستحقق بعض ما أريده في أسوأ الأحوال!

أثار فضولي بكلامه!

– ماذا تقصد؟ تكلم بوضوح!

اتكأ على الباب وهو يبتسم:

– قرأت مرة في الصحيفة أن مطرباً معروفاً شكا من تراجع شعبيته، والدليل أن الصحف لم تعد تنشر أخباراً عنه، نصحه مستشاروه بأن يقوموا بحملة تشهير ضده، وبنشر الإشاعات حوله، وبهذا تعود الصحف إلى الاهتمام به وبأخباره!

فتح الباب وخرج، تبعتُه ووقفنا أمام البيت، مرت دورية عسكرية اسرائيلية راجلة، يتلكأ أفرادها في مشيتهم لسبب غير معروف. قال وهو يتظاهر بالحكمة:

– شُفْت حب الشهرة شو بيعمل!

أطلق ضحكة مجلجلة، جعلت جنود الدورية يتوقفون، حدقوا بي وبالمغني بعض الوقت، ثم واصلوا سيرهم فوق الرصيف بالمشية المتلكئة نفسها. قلت:

– فهمتُ قصدك، لن أكتب عنك كلمة واحدة!
– ستكتب، أنا متأكد!

العكروت! كأنه يقرأ خواطري.

– سأكتب قصة، لكنني لن أذكر اسمك. لن تفرح بذلك!
– ومع هذا، رايح تكتب عن مغني الحي، وهذا يكفيني. من هو مغني الحي؟ أنا! سيبحث الناس عني ويعرفون اسمي!

جاء دوري لكي أضحك:

– أنت متفائل، لا أحد يقرأ القصص هذه الأيام!

مضى مبتعداً، بقيتُ أرقبه وهو يدب على الرصيف بخطوات، لا يمكن وصفها إلا أنها خطوات بائسة. تأملته بنوع من الشفقة، ولمتُ نفسي لأنني تعاملت معه بشيء من القسوة، فكرت في أن أستوقفه للتوصل إلى تسوية تجعل ضميري مرتاحاً، وقبل أن أناديه انطلق يركض هارباً كَمَنْ يطارده سرب دبابير! لم يطل تعجبي من هذا الأمر المفاجئ، عرفت بعد وقت قصير، أن ثمانية أشخاص من عائلة المحرر الفني، برزوا للمغني من شارع فرعي، أدركوه بعد مطاردة مربكة، وظلوا يضربونه بالعصي حتى تعطلت حنجرته عن الغناء، ولن تعود قادرة عليه، بحسب تقارير الأطباء، إلا بعد ثلاثة أشهر على وجه التقريب.

2004



عيون موراتينوس

هذه المرة، سيأتي موراتينوس إلى الناس، للتعرف على قضاياهم، دون وسيط.

هذا ما تناقلته ألسنة الكثيرين من غير أن يعرفوا مصدر الخبر. الخبر انتشر في القرية وصدقه عدد غير قليل من أهلها. رئيس المجلس القروي لم يعلم بالخبر إلا من أفواه بعض المقربين منه، لام نفسه على تقصيره بحق نفسه، لأن المفروض فيه أن يكون أول من يعرف بكل صغيرة وكبيرة. اتصل بأحد أصدقائه في المدينة، وهو من العاملين في الحقل السياسي، لكي يسأله عن حقيقة الأمر، فلم يؤكد صديقه الخبر ولم يبادر إلى نفيه. رئيس المجلس فكر ثم قدر ثم قرر أن يستفيد من الخبر سواء أكان صحيحاً أم كاذباً، سيدعو مراسلي محطات التلفزة والإذاعات، وسيدلي بتصريحات مناسبة تسعفه في معركته الانتخابية القادمة، بحيث يفوز مرة أخرى برئاسة المجلس القروي، وبذلك يدحر منافسه على الرئاسة، مصحح الجريدة الذي باشر الدعاية لنفسه منذ الآن، تمهيداً لخوض الانتخابات.

مصحح الجريدة لم يفاجأ بالخبر، (قيل فيما بعد إنه هو الذي أشاعه بين الناس بطريقة غايةً في المكر والدهاء) فهو متعود على مثل هذه الأخبار. عمله في الجريدة يجعله مستعداً لتوقع كل شيء، وعليه أن يستثمر قدوم موراتينوس لغاياته الخاصة، ولن يتمكن أحد من منافسته في هذا المجال، فهو عريف الحفل المكرس في كل المناسبات التي تشبه هذه المناسبة. أهل القرية يحسبون له ألف حساب، وينظرون إليه بحسد وإعجاب، حينما يعود إليهم قبيل منتصف الليل قادماً من عمله في الجريدة، يجدهم ما زالوا ساهرين في مقهى القرية الوحيد، ينقل إليهم بعض الأخبار التي ستظهر في الجريدة صباح اليوم التالي. يتباهى بتميزه عليهم، ولا يجرؤ أحد منهم أن ينكر عليه هذا التميز، فهو على الأقل، يعرف ما تكتبه الجريدة قبل أن يقرأه الناس، وذلك أمر ليس بالقليل في قرية صغيرة غافلة. ولا يقف تميزه عند هذا الحد، فمنذ أن روى للناس تلك المفاجأة الخاصة بأحد إعلانات الوفاة، وهم يهابونه ويخشون من مخاصمته: فقد حدث أن جاء شخص إلى الجريدة لكي ينشر إعلان وفاة لوالده الذي مات، كان الوقت متأخراً وصفحات الجريدة على وشك أن تكتمل، ما جعل الشخص يلجأ مباشرة إلى رئيس تحرير الجريدة، رئيس التحرير فكر قليلاً ثم كتب بالحبر الأحمر عند آخر سطر في الإعلان: يُنشر إن كان له مكان. طمأن صاحب الإعلان وطلب منه أن يأخذ إعلانه إلى موظف الإعلانات. الموظف عرف ما يعنيه رئيس التحرير، ففي مثل هذه الحالات، وهي كثيرة، يجري شطب فقرة أو فقرتين من مقالة أحد الكتاب، لكي يأخذ الإعلان ما يليق به من حيز، فالإعلان على أية حال، هو عصب الجريدة الحساس.تمّ الأمر بسهولة ودون تعقيدات، وبات من المؤكد أن الإعلان سينشر غداً في الجريدة. موظف الكمبيوتر كان شارد الذهن وهو يطبع الكلمات التي أمام ناظريه، أو ربما كان ساخطاً على أحد ما، فتصرف عن عمد، تصرفاً فاجأ الجميع في الصباح. أسقط الكلمة الأولى من جملة رئيس التحرير، فظهرت الجريدة وفيها الإعلان الذي جاء في سطره الأخير: أسكنه الله فسيح جناته إن كان له مكان.

الناس ضجوا بالضحك لدى سماعهم هذه المفاجأة، ومصحح الجريدة انتظر حتى تهدأ التعليقات، أخبرهم بنوع من الزهو، بأن هذا الخطأ، لم يفته، وهو يدقق كلمات الإعلان، (الصحيح أنه لم يدقق الإعلان ولم ينتبه إلى الخطأ) غير أن حالة شيطانية ركبته، فقرر أن يترك الإعلان كما جاءه من قسم الطباعة، فكانت المفاجأة! (لم يقل للناس إنه وموظف الكمبيوتر قد عوقبا بتوجيه إنذار لهما).

لذلك، صار أهل القرية ينظرون إليه كما لو أنه ساحر قادر على إنزال العقوبات بهم لأي سبب يرتئيه، خصوصاً إذا جاءته تلك الحالة الشيطانية التي ركبته ليلة ذاك الإعلان. رئيس المجلس القروي كان أكثر المتخوفين منه، وإن لم يقل ذلك في العلن. فهو محتاج للصحافة أكثر من أي شخص آخر في القرية، فحينما يلقي كلمة في حفل أو مناسبة ما، لا يندر أن تقتطع الصحف شيئاً من كلامه وتنشره على الملأ، فكيف يكون حاله لو وقع موظف الكمبيوتر في أخطاء فاضحة أثناء طباعته لكلامه، ومن ثم لا يقوم ابن الحرام، مصحح الجريدة، بضبط الأخطاء وتصحيحها!

مصحح الجريدة راح يتهيأ لاستقبال موراتينوس الذي صادف قدومه إلى القرية، يوم الإجازة الذي يتحرر فيه مصحح الجريدة من العمل، (قيل فيما بعد إن وقوع مثل هذا الأمر لم يكن مصادفة) مصحح الجريدة لا يحتاج إلى بذل جهد كبير، لكي يبهر الناس بكلماته وبالأشعار التي يلقيها في المناسبات. مصحح الجريدة ليس شاعراً، مع أنه يحاول إيهام الناس بطريقة ما، بأن ما يلقيه من أشعار إنما هو من نظمه الخالص، هو لا يقول ذلك صراحة، لكنه يجيب السائلين بكلام غامض يترك الباب مفتوحاً لكل الاحتمالات. مصحح الجريدة، في العادة، يستعين ببعض دواوين الشعر القديم، يقتطف منها ما يشاء، دون التدقيق في بعض الأحيان، إن كان ما اقتطفه منها مناسباً لواقع الحال أم غير مناسب، المهم عنده أن يطلق العنان لصوته كي يهدر مجلجلاً أمام الناس، وأمام مراسلي الصحف ومحطات التلفزة والإذاعات.

مراسلو الصحف ومحطات التلفزة والإذاعات، وصلوا القرية في ساعات ما بعد الظهر لتغطية الزيارة، زيارة موراتينوس للقرية بطبيعة الحال. جمع كبير من أهل القرية احتشد في ساحة القرية، الساحة المحاذية للشارع العام، والنساء تجمعن فوق سطح بناية مجاورة مطلة على الساحة وعلى الشارع العام. وجد الناس وقتاً كافياً للثرثرة ولتبادل الأخبار:

– سمعت ان موراتينوس جاي، ومعه شحنة مؤن: أرز وسكر وسمنة ومعلبات.

– بس المهم دم الشهداء ما يروح بلاش.

– أنا سمعت ان بنته متزوجة من شاب فلسطيني، إللي شافوها قالوا يا سبحان الخلاق، تقول للقمر قم حتى أقعد مطرحك.

– وحياة العذراء، سمعت ان أصله فلسطيني من بيت لحم، واسمه الحقيقي: مار طانيوس.

– يا ترى صحيح هذا الكلام!

– هذا اللي أنا سمعته.

– أنا داري هدمها شارون، وأولادي الثلاثة في الحبس، تشوف موراتينوس شو بده يقول.

– أي والله هذا شيء عمره ما صار: حصار وقتل وخراب ودمار.

رئيس المجلس القروي لبس أجدّ ما لديه من ثياب، جاء إلى الساحة في رهط من أبناء عشيرته. تلقفته على الفور مراسلة إحدى محطات التلفزة الفضائية، نفخ صدره أمام الكاميرا، راح يتحدث باستفاضة، وأنهى كلامه قائلاً:

– وليسمع إخواننا العرب: مال ما بدنا، مؤن ما بدنا، بس ابعثوا لنا سلاح.

مصحح الجريدة لام نفسه لأنه تأخر قليلاً عن انتهاز الفرصة، ولأن رئيس المجلس القروي ظفر بمقابلة تلفزيونية، ونجح في اختطاف الكاميرات، علا صوته مالئاً الفضاء:

أحُلْماً نرى أم زماناً جديدا   أم الخلقُ في شخصِ حيٍّ أُعيدا
تجلّى لنا فأضَأنا به   كأنّا نجومٌ لقينَ سُعُودا

مصحح الجريدة اغتاظ حينما رأى رئيس المجلس القروي يظفر بمقابلة أخرى يجريها مراسل محطة تلفزة، رئيس المجلس ابتسم ابتسامة الواثق من نفسه ومن أقواله، أمام الكاميرا، ارتجل كلاماً كثيراً أنهاه بقوله:

– وأنا أعلنها من هنا صريحة مدوية: لا للمفاوضات، لا للمفاوضات!

مصحح الجريدة كاد يفقد توازنه من شدة الغيظ والحسد، أطلق عقيرته بالإنشاد:

لا افتخارٌ إلاّ لمنْ لا يُضام   مُدْرِك أوْ مُحاربٍ لا يَنَامُ
لَيْسَ عَزْماً ما مَرَّضَ المَرْءُ فيهِ   ليسَ هَمّاً ما عَاقَ عنهُ الظّلامُ
واحْتِمالُ الأَذى ورُؤيَةُ جَانِيه   غِذاءٌ تَضْوَى به الأجْسامُ
ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذّليلَ بِعَيْشٍ   رُبَّ عَيْشٍ أخَفُّ مِنْهُ الحِمَامُ

أربع محطات تلفزة تراكضتْ نحو مصحح الجريدة لتصويره ولتسجيل صوته الرنان، فاطمأن باله واغتبط.

بعض شباب القرية لم يعجبهم الحال، لم يرق لهم تجمهرهم هكذا دون أن يقوموا بأي نشاط، شكلوا حلقة للدبكة، دبكوا وغنوا على أنغام الشبابة:

لعيونك يا موراتينوس نضرب سلام
لعيونك يا موراتينوس يحلى الكلام

بعض مراسلي محطات التلفزة وجدوا في الدبكة والغناء تنويعاً فولكلورياً ملائماً لتقاريرهم المصورة التي ستبثها المحطات هذا المساء. مراسلة إحدى الإذاعات تسللت إلى حيث تحتشد النساء، أدارت جهاز التسجيل خفية لكي تلتقط ما هو حميم وشخصي من كلامهن. جلست بالقرب من مرجانة وصفية اللتين جلستا تتبادلان الأسرار على مبعدة من حشد النساء:

– زريفة قالت لي انها بنته متجوزة من شاب فلسطيني، دارس في الجامعة دكتور.

– الله يهنّيها ويهنّيه، نيّاله فيها ونيّالها فيه.

– وقالت لي انه زلمة، الحافظ الله، مثل الجمل، ووجهه مثل البدر.

– قبرت عمرها، وين شافته؟

– في التلفزيون يا آدمية. ليكون فكرت انه دخل عليها وهي متمددة في التخت!

– والله يمكن لو صح لها ما وفرت.

– ييه! والله نجوم السماء أقرب لها منه.

ضحكت المرأتان الموشكتان على الدخول في سن الأربعين، وبدا أنهما متلهفتان لمشاهدة موراتينوس من مسافة قريبة، أما النساء الأخريات، فقد تشجعن لوجود مراسلة الإذاعة بينهن، نهضن للرقص والغناء، اقتربت إحداهن من صفية ومرجانة، دعتهما إلى الرقص:

– قومي يا مرجانة، قومي يا صفية.

صفية ومرجانة قامتا، رقصتا مثل فرسين هائجتين، والنساء غنين:

هالليلة واخرى ليلة يا حبايب   روّح جمل العيلة بقى غايب

حينما سكتت النسوة لسبب ما، التقط جهاز التسجيل صوتاً مرعداً قادماً من الساحة:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعَاً كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطّهُ السّيْلُ مِنْ عَلِ

مراسلة الإذاعة سارعتْ بالنزول عن السطح، واتجهت فوراً إلى مصحح الجريدة لتسأله عن معنى هذا الكلام، ويبدو أن الرغبة نفسها ساورت آخرين من المراسلين، فاتجهوا إلى مصحح الجريدة، فلم يرد على استفساراتهم، بل إنه اغتنم الفرصة لمزيد من الإنشاد فيما هو يصوب نظراته نحو مراسلة الإذاعة، (لم نفطن في غمرة التحضير لاستقبال الضيف، إلى التنويه بجمالها الفتان):

بأبي الشُّموسُ الجانحاتُ غَواربا   ألّلابساتُ مِنَ الحَريرِ جَلابِبَا
ألمُنْهِباتُ عُقُولَنَا وقُلُوبَنَا   وجنَاتِهِنَّ النّاهِباتِ النّاهِبَا
ألنّاعِماتُ القاتِلاتُ المُحْيِيَات   المُبْدِياتُ مِنَ الدّلالِ غَرائِبا
حاوَلْنَ تَفْدِيَتي وخِفْنَ مُرَاقِباً   فَوَضَعْنَ أيدِيَهُنَّ فوْقَ تَرَائِبا

رئيس المجلس القروي راقب الموقف بخشية وتحسب مما قد يقع من مضاعفات، خصوصاً بعد أن قال كل ما لديه من كلام لوسائل الإعلام، ولم يتبق لديه شيء يقوله، بل إن وسائل الإعلام نفسها انصرفت عنه بعد أن اعتصرته تماماً. والآن، ماذا سيقول للناس إذا لم يأت موراتينوس فعلاً؟ الشمس مالت إلى المغيب، وبعد قليل يؤذن المؤذن لصلاة المغرب، وموراتينوس لم يأت بعد، ويبدو أنه لن يأتي. إذاً، لا بد من أن في الأمر خدعة ما! فلماذا لا يبادر رئيس المجلس إلى فضح الخدعة، وبذلك ينجو من توجيه أصابع الاتهام إليه؟ وهو لن يخشى على التصريحات التي أدلى بها لوسائل الإعلام، ستبث الفضائيات هذه التصريحات حتى لو لم يأت موراتينوس، وستجد في ذلك فرصة لعرض ظاهرة جديدة، ظاهرة الاحتفاء بمسؤول سياسي كبير لم يفكر أصلاً بالقدوم إلى القرية. رئيس المجلس صاح، فالتفّتْ من حوله وسائل الإعلام:

– يا ناس، الوقت مضى بسرعة وموراتينوس لم يصل. لديّ خشية من مؤامرة ما.

ظهر في اللحظة نفسها، موكب من السيارات يسير في الشارع العام. صاح بعض الناس: جاء موراتينوس، موراتينوس جاء. زغردت النساء، شعر رئيس المجلس بأنه تسرع حينما أدلى بتصريحه الأخير، مسّدَ شاربيه بإبهامه وسبابته، عدّل هندامه الذي تهدّل من كثرة القعود والقيام، وتحرك نحو الشارع لاستقبال موراتينوس، تزاحمت كاميرات التلفزة والميكرفونات على نحو يبعث الرهبة في النفوس. اقترب موكب السيارات، أبطأت السيارات سيرها بسبب احتشاد الناس في الشارع، صاح مصحح الجريدة صيحة مدوية: عاش موراتينوس رجل السلام! ردد من خلفه الناس: عاش، عاش، عاش.

موكب السيارات تجاوز الحشد الجيّاش، ومضى مسرعاً إلى جهة لا يعلمها إلا الله. مؤذن الجامع ارتفع صوته داعياً الناس إلى الصلاة، الناس غادروا الساحة والشارع العام، وفي نفوسهم مرارة، لأن موراتينوس لم يأت، ويبدو ،كما قال بعضهم، أنه لن يأتي على الإطلاق.

2003



مقعد بابلو عبد الله

كاظم علي حزين هذا الصباح، لأن بعض الأمور لا تجري على النحو الذي يريده. حزين لأن رونالدو، لاعب كرة القدم الشهير وعد بأن يزوره، في رسالة على الإنترنت، ولم يفِ بالوعد. أعدّ كاظم علي غرفة خاصة في بيته لرونالدو وزوجته وطفلهما، ظلت زوجة كاظم علي تنتظر الزوار وهي في غاية الترقب. قالت لزوجها إنها مشتاقة للتعرف على هذه المرأة الشابة التي تحظى بالشهرة في ملاعب كرة القدم! قالت إنها مشتاقة أيضاً للتعرف على رونالدو، ولاحتضان طفله الذي يعيش منعماً في كنف أشهر لاعب لكرة القدم وأشهر لاعبة.

تألم كاظم علي وراح يبحث عن بديل لرونالدو، وما شجعه على ذلك، جشع رونالدو ونهمه إلى المال. لن يغفر كاظم علي لرونالدو ذلك العشاء الفاضح الذي جمعه بنخبة من الأثرياء الآسيويين، مقابل مليون دولار يقبضها رونالدو حلالاً زلالاً! تصوروا! يقول كاظم علي لصحبه من سائقي السيارات، يقبض مليون دولار من هؤلاء المهابيل، مقابل الجلوس معهم على مائدة العشاء في أحد المطاعم! يقول أيضاً: رونالدو اشترط عليهم ألا يستغلوا المناسبة لأي شكل من أشكال الإعلان، حتى لا تغضب شركات الإعلان التي تحتكر اسمه. تصوروا! يقول كاظم علي لصحبه: لا هو يعرف لغتهم ولا هم يعرفون لغته! همهم فقط كان منصباً على أن يجلس رونالدو معهم على المائدة، يتناولون العشاء وهو معهم وهذا كل شيء! الأدهى من ذلك! يقول كاظم علي لصحبه المتعجبين مما يجري في هذا العالم من صرَعات، أن واحداً من زمرة الأثرياء صرح بأنه وصحبه خرجوا رابحين، لأنهم كانوا على استعداد لدفع مليون ونصف المليون دولار لو أن رونالدو أبدى تمنعاً، لكنهم فازوا بالصفقة بمليون دولار، ذهبت إلى جيوب رونالدو، وتمكنوا بذلك من توفير نصف مليون دولار! يهز كاظم علي رأسه باستياء ثم يسارع إلى سيارته، ينزع عنها صور رونالدو، ينزعها بضراوة ويعلق بدلاً منها صور بابلو عبد الله، لاعب كرة القدم الفلسطيني المولود في الأرجنتين، وأحد نجوم منتخب فلسطين لكرة القدم.

أهل الحي انشدوا للمرة الأولى لأخبار النجم بابلو عبد الله، وراحوا يصغون لكاظم علي بشيء من التصديق وهو يحدثهم عنه، وينقل لهم لمحة عن سلوكه العصبي أثناء اللعب، يقول كاظم علي: صحيح أن هذا أمر مرفوض في الملاعب، غير أنني أشعر بارتياح وأنا أرى بابلو عبد الله يتصرف بعصبية وانفعال، لسبب بسيط، فنحن الفلسطينيين تعرضنا لظلم كثير! ومن حقنا ألا نسكت على أية إساءة حتى لو جاءت من لاعب في

ملاعب كرة القدم. لذلك، راح كاظم علي يتحدث بإعجاب عن اللاعب بابلو عبد الله، وأعلن ذات صباح وهو يحجز المقعد الأمامي في سيارته له، أن بابلو عبد الله سيأتي إلى حيّنا بعد أسابيع! سيزور صديقه كاظم علي، وسيقيم في بيته أسبوعاً أو أسبوعين! أكد كاظم علي أن المراسلات التي تجري على الإنترنت بينه وبين بابلو عبد الله، أسفرت عن هذه النتيجة المظفرة التي لا شك فيها ولا التباس!

بعض أهل الحي شكّوا في كلام كاظم علي، وعادت إلى أذهانهم تصريحات مشابهة أطلقها ورددها كثيراً حول زيارة لاعب كرة آخر. (المقصود رونالدو، غير أن اسمه لم يعلق بأذهانهم) آخرون من أهل الحي مالوا إلى تصديق كاظم علي، وراحوا يتأملون صور بابلو عبد الله الملصقة على زجاج السيارة بشيء من الإعجاب وببعض التساؤلات:

– متأكد انت، انه فلسطيني؟
– طبعاً متأكد! فلسطيني قح والله.
– وليش اسمه بابلو؟ مش محمد أو يوسف عبد الله؟
– أي خلصونا عاد! مش فيه عندنا نهرو ابراهيم! وجيفارا البديري!
– وليش شعره نازل على كتفيه مثل البنات؟
– أي هذا اسمه سؤال! بابلو عبد الله حر في شعره!

تساؤلات أخرى، بعضها سخيف وبعضها الآخر معقول، واجهت كاظم علي ووجد من واجبه الرد عليها، غير أن أحد التنظيمات السياسية في الحي حسم الأمر لصالح كاظم علي، حينما نشر تحليلاً في صحيفته الأسبوعية أثنى فيها على ضم عدد من اللاعبين الفلسطينيين المولودين في المهجر إلى صفوف منتخبنا الوطني، واعتبر ذلك خطوة لها دلالتها الرمزية، وهي مؤشر على ضرورة الاهتمام بوحدة الشعب الفلسطيني أينما كان. فرح كاظم علي لهذا التحليل، وراح يتحدث عنه في كل مناسبة، وراح في الوقت نفسه يواصل حجز المقعد الأمامي في سيارته لبابلو عبد الله ويبشر بقرب قدومه إلى الحي.

كاظم علي اعتقد أنه أصبح على وشك أن ينسى رونالدو، لولا أن زوجته نوال أعادته إلى مقدمة اهتماماته وهمومه.

نوال، أصبحت منذ الأسابيع الأولى لاقترانها بكاظم علي، مهتمة بالرياضة مجاراة لزوجها وتقديراً لاهتمامه بها. مباريات كثيرة شاهدتها نوال صحبة زوجها، على التلفاز. لم يحدث أن ذهب كاظم علي وزوجته لمشاهدة مباراة، لسبب بسيط وهو أن النساء في حيّنا لا يذهبن إلى الملاعب لمشاهدة المباريات. اكتفى كاظم علي وزوجته بمشاهدة المباريات على شاشة التلفاز، وقد تحققت لهما من ذلك متعة ليست قليلة، ولم تلبث هذه المتعة أن تعمقت حينما انتقلت بعض مصطلحات الملاعب إلى سريرهما مكتسبة دلالات حسية جديدة: كاظم علي يتقمص دور الخصم أثناء اللعب، ونوال تتقمص دور الخصم والحكم، تطلق صفرة معلنة بدء المباراة، كاظم علي يحاورها ويداورها وهي تحاوره وتداوره، ويجري أثناء ذلك تسديد مجموعة من الضربات المباشرة وغير المباشرة، ويستمر اللعب هيناً ليناً حيناً، عنيفاً صاخباً حيناً آخر، ولا تلبث تأثيرات الغزو الثقافي الإسرائيلي أن تتسلل إلى تفاصيل المباراة، تقول نوال: أتاه سحكان مِتْسُويان (أنت لاعب ممتاز) يجيبها كاظم علي: جَمْ آتْ سحكانيت متسوفينت (أنت أيضاً لاعبة ممتازة)، ترتكب نوال مخالفة أثناء اللعب، ويفوز كاظم علي بضربة جزاء، ينفذها بنجاح وتنتهي المباراة.

ولا تتوقف المتعة عند هذا الحد.

كاظم علي يعود إلى البيت ذات مساء. يفاجأ بزوجته وهي ترتدي بنطالاً قصيراً أسود يكشف عن فخذيها الأبيضين، وتنتعل حذاء رياضياً فوق جوربين أسودين، يغطيان ساقيها إلى ما تحت ركبتيها بقليل. رآها كاظم علي وهي تُرَقّص الكرة بقدميها، ثم لا تلبث أن تركلها نحو الحيز الذي يقع بين حائط البيت الأمامي والسور الذي يحمي البيت. كاظم علي شعر بنشوة طاغية وهو يرى زوجته تلعب بالكرة، بعد دقيقتين أو ثلاث دعاها إلى التوقف عن ذلك، اقتادها بسلاسة واجتاز بها باب البيت الذي تغمره السكينة واندلاع الرغبات. قالت له:

– بدي اصير لاعبة كرة قدم.
– لا مانع لديّ، بشرط أن تلعبي هنا في ساحة البيت!
– لا، لا، في الوقت المناسب سأخرج إلى ملعب الحي!
– هل هذا معقول يا نوال؟
– بدي اصير مثل زوجة رونالدو، يعني هي أحسن مني!

اسم رونالدو عاد يقرع رأس كاظم علي من جديد، لكنه هذه المرة عاد بسبب شهرة زوجته في الملاعب. نوال تريد أن تختط لنفسها طريقاً مثل ميلين، زوجة اللاعب الشهير! هل هذا ممكن يا نوال؟ وين بتفكري نفسك عايشة! بدك تفضحيني قدام أهل الحي؟ كاظم علي لم يحتمل مجرد التفكير بأن تخرج زوجته إلى الملعب وهي ترتدي بنطالاً قصيراً أسود، يكشف عن فخذيها ويجعلهما نهباً لعيون المراهقين من أبناء الحي.

كاظم علي لم يحتمل ما سوف تتندر به النسوة الثرثارات، سوف يسلقن نوال بألسنتهن الطوال، سوف يُفَصّلن لها نعوتاً وألقاباً ناتئة ترافقها عبر رحلة حياتها، وقد تستمر في الانتشار إلى ما بعد وفاتها بسنوات، وسينال حصته من هذه النعوت والألقاب: زوج لعيبة الفطبول، زوج أم البنطلون الشورط! آخ، يشرط بطنك يا نوال! يلعب على راسك غراب البين! لن تصبحي لاعبة كرة قدم حتى لو ذهبتِ إلى الملعب بجلباب، سأمنعك من تحقيق هذه الرغبة، سأمنعك حتى لو وصل الأمر إلى حد الطلاق! هل يقدم كاظم علي على الانفصال عن زوجته؟ هل فعلاً يستطيع الإقدام على ذلك؟ إنه يحبها، يحبها كثيراً، غير أنها ستعرضه إلى إهانة كبيرة في حالة إصرارها على تنفيذ قرارها! لم يتوقع كاظم علي أن يتعرض لمثل هذا الاختبار! يشعر الآن أنه هش، هش إلى درجة أن أقل خروج عن مألوف أهل الحي، قد تُقدم عليه زوجته، سيعرضه لانكسار! ومن يدري! قد يجد فرصة لتفويت الأزمة التي تنتظره! سيلجأ إلى استنفار كل ما لديه من لباقة وبعد نظر، سيحاول إقناع زوجته بالتخلي عن رغبتها، لأنه في حقيقة الأمر يريدها معه ولا يمكنه نسيان حبه لها، ولا يمكنه في الوقت نفسه نسيان حبها له وتعلقها به.

كاظم علي عاد إلى البيت كعادته في المساء. فوجئ بزوجته ومعها ثلاث نساء، ينتشرن في الساحة الصغيرة وهنّ بملابس الرياضة، والكرة تتنقل بين أقدامهن برشاقة وانسياب. تعطل ذهنه لحظة عن الاستيعاب، ثم أطلق ضحكة عصبية لم تعثر لها النساء الأربع على أي سياق مقنع، أتبعها بجملة باهتة:

– يا اللي مثلنا تعالوا عندنا!

النساء الأربع لم يتفوهن بأية كلمة. رحن يتقاذفن الكرة بحركات منسقة واثقة، وكاظم علي يتابعهن وهو واقف في طرف الساحة. انزاحت الكرة عن مسارها قليلاً واقتربت من كاظم علي، تحرك نحوها، أوقفها بقدمه، فكر أن يشق بطنها بسكين المطبخ منهياً هذا الكابوس المزعج، لكنه أدرك أن محاولته هذه ستزيد الأمر تعقيداً، خصوصاً وهو يعرف عناد زوجته وإصرارها على تنفيذ أي أمر تعتقد أنه صحيح. وجد أن المرونة مطلوبة في هذه الحالة، وهي التي ستوفر له فسحة من الوقت للعثور على حل مقبول، قالت له زوجته بلهجة فيها ألفة ودلال:

– كاظم، اضرب الكرة.

ظل كاظم صامتاً متردداً، والكرة جاثمة تحت قدمه لا تستطيع الحراك. كررت زوجته النداء:

– يا الله كاظم، حبيبي، اضرب الكرة.

قال كاظم في رجاء:

– أضربها بشرط واحد: تأجيل الخروج إلى ملعب الحي إلى أن يأتي بابلو عبد الله!
– متى يأتي بابلو عبد الله؟
– أخبرتك من قبل، بعد ثلاثة أسابيع.
– وإذا لم يأت مثله مثل رونالدو!
– نفكر في الأمر من أول وجديد، ونعثر على حل.

قالت نوال دون تفكير زائد في الأمر:

– أنا موافقة، اضرب الكرة!

ضرب كاظم علي الكرة ضربة قوية، اجتازت السور وراحت تتدحرج على طول الشارع. همّت نوال باللحاق بها، سبقها كاظم علي إلى ذلك، حمل الكرة ومشى عائداً بها، والنساء الأربع ينتظرنه داخل سور البيت.

2004



وليمة رامسفيلد

استيقظ عمي الكبير من نومه قبل طلوع الفجر، وراح يستعد للوليمة المنتظرة.

قلنا: يبدو أنه لم ينم طوال الليل، أو أنه نام وهو يحلم بالوليمة.

منذ أسابيع وعمي الكبير يهلوس في ساعات صحوه وفي ساعات نومه، أصبح اسم رامسفيلد مثل تعويذة على لسانه. ابن عمي، طلحة، طلب من أبيه غير مرة أن يطوي صفحة هذا الموضوع ولا يعود إليه. قال له: رامسفيلد لا يفكر بك ولا يمكن أن يستجيب لدعوتك. عمي الكبير قال وهو مستفز من كلام ابنه: وانت شو بيعرفك يا ولد؟ وراح يروي لنا كيف أن المرحوم والده، شيخ الحي لسنوات طويلة، وجه دعوة لجلوب باشا الانجليزي، القائد العسكري المعروف، فلبى الدعوة شاكراً، وجاء إلى الحي في ثلة من عسكره، فانبهر أهل الحي بمنظر الجنود المصطفين حول القائد، أو الذين انتشروا فوق أسطحة المنازل، لحراسته. قال عمي: يومها أكل جلوب باشا منسفاً مجللاً باللحم. وقال: صدقوني أنه أكل المنسف بيده مثلنا نحن العربان، لم يستخدم ملعقة، وزاد على ذلك بأن شرب المرق من طنجرة صغيرة حتى ابتلت ذقنه وشارباه. قال ابن عمي ساخراً: تظاهر بأنه مثلكم لكي يضحك على ذقونكم. زجره عمي وقال: طيب اسكت، اسكت! ثم أضاف: أنا متأكد أن رامسفيلد سيلبي الدعوة، وسيأتي لأكل المنسف في هذا الحي.

بدا عمي الكبير واثقاً من كلامه كما لو أن رامسفيلد، وزير دفاع أقوى دولة في العالم، بات في جيب قمبازه، أو رهن إشارته كما يقال في كتب الأدب. غير أن ابن عمي، طلحة، ظل متشككاً في كلام أبيه. همس في أذني وقال: الوالد خالص كازه! طلبت منه في الحال ألا يردد مثل هذا الكلام كي لا تقع فتنة بين الولد وأبيه.

مرت أيام، وبدا واضحاً أن رامسفيلد سيلبي دعوة عمي الكبير، وقد تداول الناس أثناء ذلك، شائعات كثيرة. مثلاً: قيل إن عمي الكبير ذهب إلى فتاح مشهور في إحدى القرى. الفتاح ابتدأ حياته سرسرياً كثير النزوات، ثم هداه الله وفتح عليه. قال الفتاح لعمي الكبير: أبشر يا عبد الرزاق، سيأتيك الضيف المدعو رامسفال على جناح الريح. عمي الكبير غضّ النظر عن التلفظ الخاطئ باسم الوزير، وغفره للفتاح لأنه رجل درويش، لكنه خرج من عنده موقناً أن جهوده لم تضع سدى، لأنه قام بوساطات عدة كي يستجيب رامسفيلد للدعوة المتوخاة. اتصل عمي (على ذمة الرواة) ببعض السفارات غير هيّاب من شبهة الاتصال بالسفارات، وفي ذهنه أمر واحد لا يتعداه: دعوة رامسفيلد لتناول طعام الغداء! ويضيف الرواة أن بعض السفراء استغربوا الدعوة واعتبروا عمي مخبولاً، غير أن سفراء آخرين وجدوا في الدعوة منتهى الحكمة ورجاحة العقل، فبذلوا جهوداً مشكورة في هذا الشأن. وقيل إن عمي الكبير لم يكتف بجهود السفراء، لقنه والده المرحوم أن الله سبحانه وتعالى يضع سره في أضعف خلقه، لذلك توجه إلى الفتاح الذي كان سرسرياً وهداه الله، وتوجه في وقت لاحق إلى مختار في قرية مجاورة معروف بالمتاجرة بالحشيش، وبتزوير الوثائق المتعلقة بملكية بعض الأراضي، لبيعها لشركات إسرائيلية متخصصة في سرقة أراضي الفلسطينيين. تلفظ عمي باسم الوزير غير مرة أمام المختار، الذي قال: آه، رامفيلد! هذا الإسم مش غريب عليّ. تغاضى عمي الكبير، كما قيل في ما بعد، عن هذا الخطأ غير المقصود، وواصل الإصغاء لكلام المختار وهو يؤكد له بأنه سيطلب تدخل صديقه مدير الشركة الإسرائيلية في هذا الأمر. قال: إطمئن، مدير الشركة رجل مهم وإيده طايلة! سأل وهو شارد الذهن: ضيفك هذا من وين؟ قال عمي وفي كلامه رنة استياء: أميركاني! رامسفيلد! وزير الدفاع! ما سمعت عنه؟ قال المختار مستدركاً: أيوه رامفيلد! أقول لك هذا الإسم مرّ عليّ. قال بعد لحظة صمت: خلص، إركن عليّ.

عمي الكبير لم يكتف بذلك، ظل يجري اتصالات مع جهات عديدة حتى استجاب رامسفيلد للدعوة.

انتشر خبر مجيء رامسفيلد إلى حينا، في كل أرجاء الحي وفي الأحياء المجاورة. أسقط في يد ابن عمي، فوجئ تماماً، إذ كيف يقبل رامسفيلد دعوة من أحد وجهاء حي مغمور في رقعة صغيرة من هذا الكوكب الفسيح! قال ابن عمي إن عليه مراجعة أفكاره ومواقفه التي تعب من أجل بنائها طوبة فوق طوبة كما يقال، وها هي ذي الآن مهددة بالانهيار داخل رأسه، لمجرد أن رامسفيلد قبل دعوة أبيه! لو كان الذي لبى الدعوة هو وليم بيرنز أو ميتشيل (صاحب الريبورت) أو القنصل الأمريكي في القدس، لقلنا إن الأمر متوقع ومعقول، أما أن يلبي الدعوة رامسفيلد وزير الدفاع القوي الجبار، فهذا أمر بحاجة إلى إعادة نظر في كل المسلمات.

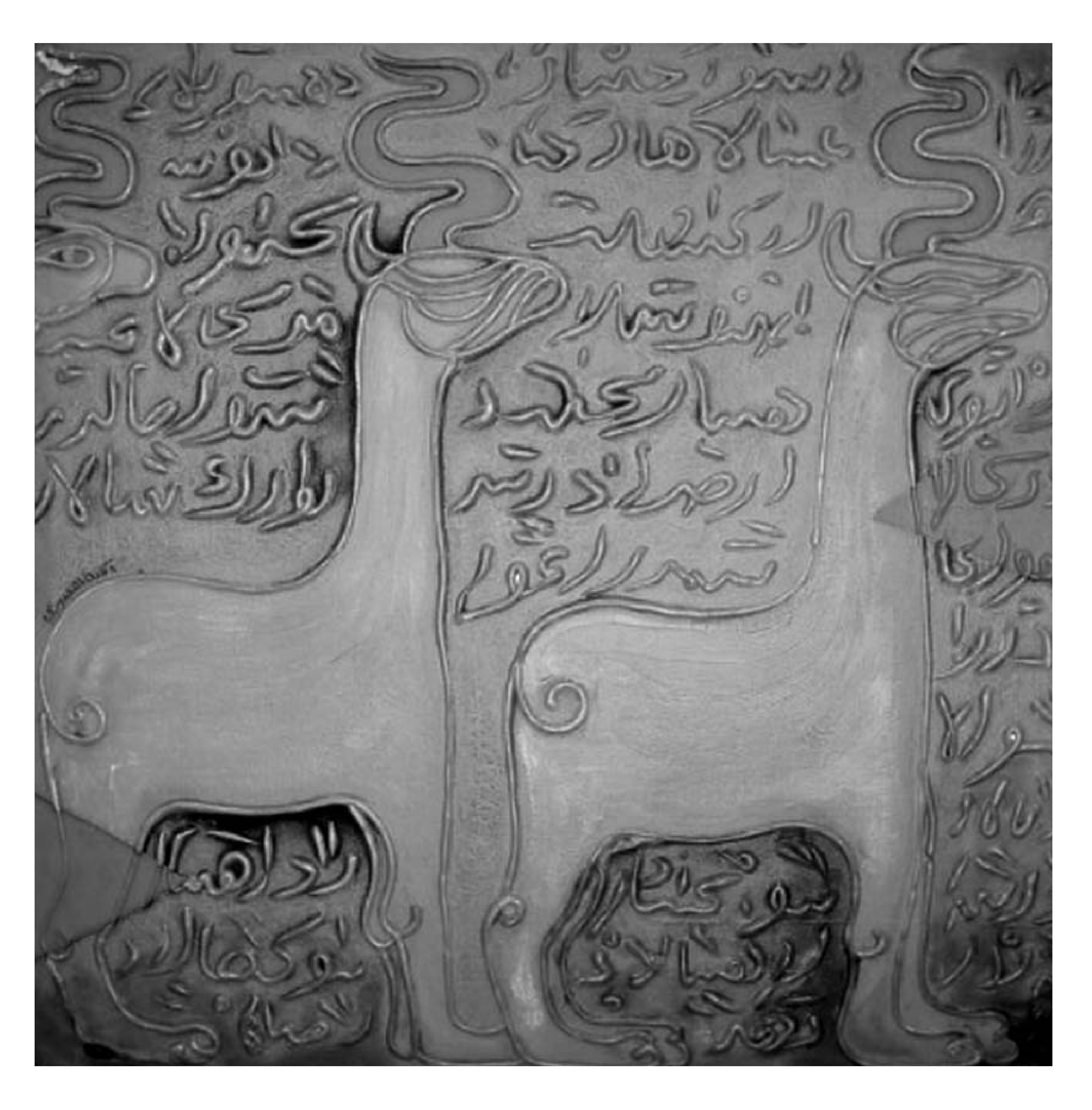
عمي الكبير ضرب ضربته وجاءت صائبة بإحكام. عمي لا يفلسف الأمور مثل ابنه طلحة، علمه أبوه المرحوم حكمة ظلت قابعة في رأسه لا يطالها النسيان، قال له: صاحِبِ السبع حتى لو أكلك. وحينما ذاع صيت رامسفيلد، وراح عمي يتابع غزواته المظفرة التي تتحدث عنها الإذاعات، اتخذ قراره بتوطيد علاقته مع رامسفيلد للاستقواء به ولطلب العون منه في الملمات. عمي لا يفكر في قضايا السياسة العامة هذه الأيام، لا يفكر بمجابهة مع إسرائيل مثلاً، ثم إن رامسفيلد ليس خصماً لإسرائيل حتى يستعين به عمي عليها. منذ أن توالت علينا الهزائم وطال فوق رؤوسنا أمد الاحتلال، تراجع عمي إلى مواقعه الأولى، وجيهاً من وجهاء الحي، يناصب الوجهاء الآخرين العداء، ويخوض معهم صراعات عائلية لا تسرّ الخاطر ولا ترفع الرأس، يهجم عمي مع أبناء عائلته على هذا الجار أو ذاك، ويتعرض عمي في الوقت نفسه لغزوات مشابهة. مرة، اشتبك في شجار دموي مع الجيران، جرح في ذراعه من طعنة سكين، وهزم هو وأبناء العائلة شر هزيمة. لذلك، خطر بباله أن يتحالف مع شخص ذي بأس وجبروت، فلم يظهر له أحد أقوى من رامسفيلد.

أخذ عمي يستعد لاستقبال الضيف الخطير. اختار ساحة واسعة في وسط الحي، وأمر ببناء المضارب فيها، وخصص مكاناً في طرفها لهبوط الطائرات. ثم أرسل في طلب خبيرة الغناء الشعبي في الحي، (ليست خبيرة بالمعنى الحرفي للكلمة) جاءت على عجل، بقوامها الفارع وبجمال عينيها الذي ما زال يسبي قلوب الرجال، على رغم أنها تجاوزت عهد الصبا منذ سنوات، لكنها ما زالت قادرة على ترطيب ليالي الأعراس بصوتها الرنان. قال لها عمي وهو يرمقها بإعجاب: اليوم يومك يا مليحة. قالت مليحة مدللة على خبرة لا يستهان بها: فكرت في الأمر قبل أن تدعوني، بس إلي شرط واحد. قال عمي: اشرطي يا مليحة. قالت: نحذف آخر حرف في اسمه! استغرب عمي كلامها، وكادت تنشب أزمة ذات طابع لغوي. قالت مليحة بإصرار: اسمه غريب، كأنه لم يُخلق للغناء. ضحك أحد مدرسي اللغة في حيّنا وقال: فعلاً، لدى هذه المرأة الفاضلة إحساس سليم، لأن التلفظ باسمه يضايقك كما لو أنك تبتلع مسماراً! غضب عمي وزجر المدرس دون اعتبار لوزنه العلمي: اسكت انت يا ابو لحية! بديش تقلبوا الموضوع سياسة! سياسة ما بدي!

انصاع عمي لشرط مليحة بعد طول جدال.

وانصاع طلحة، ابن عمي، لمبادرة أبيه التي كادت تزلزل أفكاره ومعتقداته، غير أنه عاد لتوظيفها في مجال دعم هذه الأفكار. قال: هذا هو العالم الجديد الذي يتخلق بين أيدينا وأمام أنظارنا، حيث لا يترفع أكبر مسؤول عن زيارة أبسط الناس، لسبب بسيط: تدعيم أواصر الثقة بين الحاكم والمحكوم. وأضاف: أصبح عالمنا قرية صغيرة مثل قولك الله واحد! لم أعلق على





كلام ابن عمي، ولم أستغربه منه، ولم يتوقف عن ابتداع التبريرات لنفسه، إلا حينما دخل علينا عمي الكبير، ورأى دزينة من القمصان الفاخرة مركونة في أحد أركان المضافة. قال ابن عمي: هذه القمصان، سأقدمها هدية لرامسفيلد! تساءل عمي: من قال لك إن رامسفيلد تنقصه قمصان؟ قال ابن عمي: دائماً يظهر رامسفيلد على شاشة التلفاز بقمصان مجعلكة، سأقدم له هذه القمصان الثمينة. ولم ينقذ هدية ابن عمي من الرفض المحتوم سوى وصفه لها بأنها ثمينة. أمام هذه اللفظة ذات الرنين الخاص، استكان عمي ووافق على تقديم الهدية لضيفه العزيز. تشجع ابن عمي واقترح على أبيه أن يحضر لضيفه طعاماً عصرياً: وجبة ستيك مثلاً أو وجبة دجاج مسحّب! استاء عمي من كلام ابنه، ردد ساخراً: ستيك أو دجاج مسحب! فيه حدا بيرفض المناسف عشان يوكل جاج مسحب يا طلحة! سكت طلحة مغلوباً على أمره، وراح عمي يستعد لاستقبال الضيف.

وصل الضيف في الموعد المحدد.

حطّت ثلاث طائرات هيلوكبتر في طرف الساحة الكبيرة. نزل رامسفيلد من إحدى الطائرات، تلفت حواليه غير مرة، عدل نظاراته الطبية بإصبعه فوق عينيه، وابتسم ابتسامة عريضة واثقة، واندلع غناء النسوة:

ركبْ رامسفيل وسافرْ ع حَلَبْ
قَدّموا له البقلاوة في صحون ذَهَبْ

تقدم رامسفيلد نحو المضارب ومن حوله حاشية كبيرة، برز له عمي ومن حوله حشد من رجال الحي. صاح عمي مرحباً: يا هلا، يا هلا! وواصلت النسوة الغناء:

ركب رامسفيل وسافر ع طوباس
قدموا له البقلاوة في صحون نحاس

تعانق رامسفيلد مع عمي الكبير كأنهما صديقان منذ سنوات. قاده عمي من يده وأجلسه فوق فرشتين من الصوف، جلس رامسفيلد وظل يرسل ابتسامته التي تبدو كأنها الرد غير المباشر على من يسأل: يا فرعون مين فرعنك؟ ابتسامة متعالية متأنقة سابحة في ملكوتها النخبوي الخاص، ولم تنقطع تلك الابتسامة إلا حينما شرب رامسفيلد جرعة من فنجان القهوة المرة، عقد جبينه وبدا متذمراً كما لو أن شوكة انغرزت في حلقه، ولم تنفرج أساريره إلا بعد أن عاجله عمي الكبير بكأس ماء، شربه رامسفيلد وعاد يبتسم كالمعتاد، وعمي الكبير يحمد الله بصوت مبتهل لأن ابتسامة ضيفه عادت تتلألأ على محياه.

جاءت المناسف يحملها أبناء العشيرة ويضعونها أمام الضيف وحاشيته. قال عمي بلهجة فيها الكثير من التوقير والاحترام: يا حيا الله ضيفنا رامسفيلد وربعه! تفضل يا ضيف! تفضلوا يا الربع. لم ينهض أحد لتناول الطعام، أرسل رامسفيلد ابتسامته المتلألئة نحو اللحوم المكوّمة فوق تلال الأرز، وظل قابعاً في مكانه لا يغادره. ارتبك عمي الكبير وهمس في أذني: صدق طلحة! ليتني قدمت لهم وجبة دجاج مسحب! غير أن رامسفيلد قطع على عمي ظنونه، تلفظ ببضع كلمات، ثم قال المترجم لعمي: تفضل أنت، تناول من كل منسف لقمة! أدرك عمي ما هو المقصود من هذا الكلام. ثار في داخله بركان غضب لم يسمح له بالانفجار. قال لأحد الأولاد: أحضر الكلب يا ولد، بسرعة، مثل الطير. أحضر الولد الكلب، رمى له عمي كمية من اللحم والأرز، اغترفها من الصينية الكبيرة الجاثمة أمام رامسفيلد. انطلق الكلب يلتهم الطعام بشراهة، ورامسفيلد يبتسم كما لو أنه يشاهد مسرحية هزلية. تحشرجت أنفاس الكلب، وتسلطت عليه موجة من سعال حاد، جحظت عيناه، تلوى أمام الجمع، ثم ارتمى على الأرض ومات.

ارتعب عمي الكبير واعتقد أنه وقع في ورطة لم يتوقعها. نهض رامسفيلد غاضباً، (مع ذلك، لم تغب ابتسامته تماما) هجم عدد من مرافقيه الأشداء على عمي، وقيدوه بقيود أحضروها معهم استعداداً لمفاجأة كهذه كما يبدو، تفرق الناس خائفين مذعورين، واتجه رامسفيلد إلى الطائرة.

اقتيد عمي الكبير إلى سجن غوانتانامو، (إحدى محطات التلفزة ذكرت أنه محجوز في فيللا فخمة في إحدى ضواحي نيويورك!) وُجهت له تهمة الانتساب إلى خلية إرهابية. قامت هيئة دولية محايدة بفحص الكلب الذي تناول الطعام، فوجدت أنه مات من عظم التصق بحلقه. جرت تدخلات للإفراج عن عمي، قامت بها محافل دولية عديدة. (الجامعة العربية تدخلت في الأمر مع أنها ليست محفلاً دولياً!) وتدخل في الأمر نفسه المختار الذي يزوّر الوثائق، وحلف أيماناً مغلظة بأن عمي بريء من التهمة المنسوبة إليه. أطلق الفتاح الذي كان سرسرياً ثم تاب، نبوءة، قال أمام حشد من الناس أثناء زيارة للحي: حينما يصبح القمر بدراً في السماء، سيعود عبد الرزاق.

وبالفعل، لم تخب النبوءة، أو هذا ما اعتقده بعض الناس وهم مبهورون بعلم الفتاح. مرت ثلاثة أشهر، وأصبح القمر بدراً أثناء ذلك ثلاث مرات، ثم مرت تسعة أيام أخرى، وإذا بعمي الكبير يعود من سجن غوانتانامو. روى لنا ما جرى معه من طقطق لسلام عليكم، وهو ما زال حتى يومنا هذا يعيد رواية كل شيء مثل اسطوانة عالقة، ويستقبل في الوقت نفسه المهنئين في بيته، ومن لم يعرف بالأمر حتى الآن، فها أنذا أخبره بذلك، والله على ما أقول شهيد.

2004



جدار أكاديمي

وصل فريق ستار أكاديمي كله تقريباً، وحطّ الرحال بالقرب من القدس، لِصْقَ جدار الفصل على وجه التحديد. لم يكن ثمة تخطيط مسبق لزيارة من هذا النوع! قام الفريق بالزيارة بعد عدد من الرسائل التي أرسلها رأفت حسين إلى إدارة الأكاديمية. قال رأفت إنه راغب في الالتحاق بالأكاديمية مثل بقية الشبان العرب، لكي يمارس الغناء الذي يعشقه منذ الصغر، إلا أن سلطات الاحتلال منعته من السفر إلى بيروت متذرعة بالأمن، أمن الإسرائيليين طبعاً! وسلطات الاحتلال كما هو واضح ليست معنية برغبات الشبان الفلسطينيين الذين أبدوا اهتماماً ببرنامج ستار أكاديمي، ووجدوا فيه فرصة للتنفيس عما هم فيه من حصار. رأفت، في هذه المناسبة، متفهم إلى حدّ ما لرأي أستاذه الذي يدرسه مادة علم النفس في الجامعة، الأستاذ يقول: هذا البرنامج يسعى إلى تقديم ثقافة فارغة لتسطيح وعي الأجيال الشابة! ومع ذلك، فهو راغب في متابعة البرنامج على رغم الانتقادات التي يوجهها إليه أستاذه وغيره من الصحافيين والسياسيين، أو من يتبنون أفكاراً شبيهة بأفكار الشيخ علي السمهوني الذي ظهر على شاشة إحدى الفضائيات ذات مساء، وراح يكيل الذم والهجاء لبرنامج ستار أكاديمي، لأنه لا يطيق أن يرى البنات وهن يختلطن بالشبان! قال: المشرفون على هذا البرنامج وأشباهه يسعون إلى نشر الفساد الخلقي في أوساط الأجيال الصاعدة، وإلى تكريس حالة الهوان التي تعيشها أمة الإسلام! رأفت يحدق في شاشة التلفاز ويقول: خففْ علينا يا سيدي الشيخ! وإذا بدّك تبحث عن أسباب هوان الأمة، ابحثْ عنها في غير هذا البرنامج! رأفت حاول أن يهاتف المحطة الفضائية، لمحاورة الشيخ حول وجهات نظره المتشددة! ولم يفلح في الوصول إليها، فكر في كتابة رسالة للشيخ، لكنه عدل عن الفكرة لأنه قد لا يكترث له! ولن يقبل بالدخول معه في حوار، لأن رأفت ابن امبارح لا أكثر ولا أقل!

فوجئ رأفت حينما رأى الشيخ علي السمهوني جالساً قرب الجدار، مع الجمع الذي جاء للمشاركة في برنامج ستار أكاديمي. رأفت لم يوجه له الدعوة لكي يجيء، جاء من تلقاء نفسه كما يبدو! (كيف سمح له الإسرائيليون بالدخول؟) الشيخ علي يتفحص بعينيه علو الجدار الزائد عن الحد ولونه المتجهم الذي يسدّ النفس، ويقارن بين لونه هذا والألوان الزاهية التي تعلن عنها ملابس النساء اللواتي جئن للمشاركة في سهرة ستار أكاديمي، (أغلب الظن أنهن فلسطينيات!) الشيخ علي يشعر بالأسى بسبب حال الأمة التي تمعن في التردي والانهيار، (حتى الفلسطينيون الذين يشعلون انتفاضة مباركة، تتبرج نساؤهم على هذا النحو المؤسف!) ولم يوقف تيار الخواطر التي تأكل أعصاب الشيخ، سوى انتباهه للجنود الإسرائيليين الذين يحاصرون المكان، وهم يتقدمون الآن نحو الحشد كأنهم على وشك أن يشرعوا في تفريقه، غير أنهم توقفوا عند نقطة معينة ولم يقوموا بأي إجراء عنيف. عشرات الكاميرات التي نصبها مراسلو الفضائيات العربية والأجنبية كانت لكل شيء بالمرصاد، (ربما كان هذا هو سبب امتناع الجنود عن ممارسة تعسفهم المعهود).

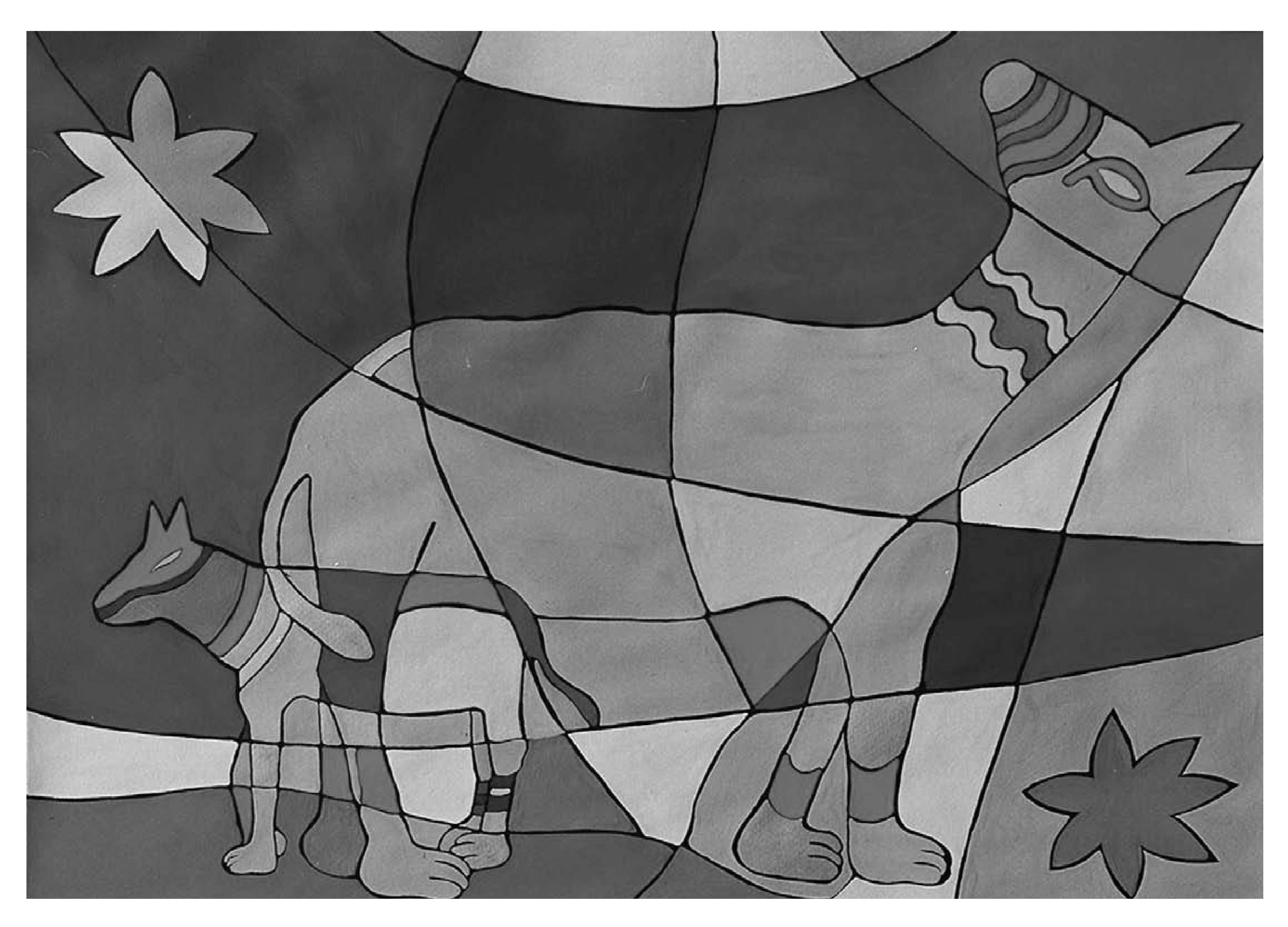
برزت هيلدا خليفة من خلف الكواليس بابتسامتها الرشيقة وخفة دمها المعتادة، حيّت الجمهور الذي صفق لها بحماس! قالت: بالفعل، هذا مساء مشهود! إنه مساء جدار أكاديمي! بدت تحت الجدار مثل حمامة تفر من صياد! قال الشيخ علي السمهوني بصوت مسموع: اللهم ألهمنا الصبر والقدرة على الاحتمال! قالت هيلدا كلاماً يليق بالمناسبة، أكدت حبها لفلسطين ثم أعلنت: سيكون بين طلاب الأكاديمية لهذا المساء، شاب فلسطيني يغني مباشرة أمام الجمهور، صاحت بصوت احتفالي: أقدم لكم الفلسطيني رأفت حسين! دخل رأفت إلى الساحة بهامة مرفوعة، وفي اللحظة التالية شعر بارتباك، خانته قدماه غير مرة وهو يتقدم فوق الساحة، ولم ترتفع يده إلا بصعوبة لتحية الجمهور الذي استقبله بالتصفيق، تمنى في سره ألا تستمر هذه الحالة التي قد تتسبب في إضعاف السهرة وفي تخريب محتواها المأمول. جلس رأفت في المكان المحدد له، وراحت هيلدا تقدم طلاب الأكاديمية بالتتابع: بهاء الكافي من تونس، محمد عطية من مصر، (اسمه قريب من اسم محمد عطا! وقد تستدعيه سلطات الاحتلال للتحقيق!) بشار الشطي من الكويت، ومحمد خلاوي من العربية السعودية. الجمهور صفق للطلاب تصفيقاً متصلاً استمر ثلاث دقائق على وجه التقريب، رأفت ألقى نظرة سريعة على الجمهور: غالبيته العظمى من الصبايا، وثمة شباب وبعض الكهول، قدّر رأفت أن ثمة أولاداً وبنات من أقطار عربية أخرى! (كيف سمحت لهم سلطات الاحتلال بالدخول إلى مشارف القدس ومنعتني من الخروج إلى بيروت!(الشيخ علي السمهوني اقتنع بعد تدقيق غير مستفيض أن ثمة بين الجمهور، مَنْ قدموا من بعض البلدان العربية، وبدا أن مجيئه للمشاركة في هذه السهرة سيكون نافعاً للأمة بإذن الله.

ابتدأت السهرة بأغنية «عربي أنا» غنّاها بشار الشطي وتجاوب معها الجمهور، ثم غنّت بهاء بالاشتراك مع محمد عطية:

يا دبلة الخطوبة عقبى لنا كلنا
ونبني طوبة طوبة في عش حبنا
نتهنى بالخطوبة ونقول من قلبنا
يا دبلة الخطوبة عقبى لنا كلنا

هاجت الساحة وماجت، البنات يتمايلن طرباً على إيقاع موسيقى الأغنية، تندلع في صدورهن رغبات شتى، وتتمنى كل واحدة منهن لو أنها بهاء، والأولاد تفيض نفوسهم بمشاعر جياشة، ولا يجدون وسيلة لتفريغها سوى الرقص ثم الرقص ثم الرقص، والشيخ علي السمهوني مستاء، يشعر أنه تورط في المجيء إلى السهرة! إذ كيف يقبل بأن يحشر نفسه بين حشد من المراهقين والمراهقات؟ كان بوسعه أن يستمر في مخاطبة الأجيال الصاعدة ومحاولة هدايتها إلى السبيل القويم، عبر شاشة التلفاز! (ثمة إشارات توحي بأن رأفت مسؤول عن مجيئه إلى هذا المكان!) ورأفت ينقسم على نفسه فجأة ولا يدري كيف حدث له ذلك! فالبراءة التي تطل من عيني بهاء ومن وجهها الصبوح، أوقعته وهو يراها أمامه من دون حواجز أو معوقات، في ذهول لم يجربه من قبل، أدرك أنه واقع في حبها لا محالة! وهذا أمر سيوقعه في ورطة مع صديقته سوسن التي تدرس معه في الجامعة، (وقع في حبها منذ عام، وهي تحبه حدّ العبادة، ولم تطمئن نفسها إلا حين اتفقا على الزواج بعد التخرج في الجامعة، أي بعد سنة من الآن!) أجال رأفت نظره في جمهور الفتيات لعله يرى سوسن بينهن، فلم يعثر لها على أثر، شعر بالإثم لأنه جاء إلى السهرة ولم يصطحبها معه! كيف حدث ذلك؟ كيف تجاهل فتاته التي يحلم بها في الليل وفي النهار؟ هل كان يزمع على خذلانها دون أن يدري؟ هل رتب في لاوعيه مسألة التحول عنها إلى الأمّورة بهاء؟ فلم يخبرها بأمر هذه السهرة التي لعب هو الدور الأساس في ترتيبها، وفي التحضير لها، وفي إقامتها قرب الجدار! لتكون مظهراً من مظاهر احتجاج العرب على الجدار، وشكلاً من أشكال تضامنهم مع أخوتهم





الفلسطينيين! (رأفت يتذكر الآن كيف أن المسافة بين بيته والجامعة لا تزيد عن ثلاثة كيلومترات، وكيف أنه مضطر بسبب الجدار إلى قطع مسافة أربعين كيلومتراً للذهاب إلى الجامعة، وأربعين كيلومتراً للعودة منها إلى البيت! ورأفت يراهن على أن شارون معتوه! يبني جداراً، لكي ينهب المزيد من أراضي الفلسطينيين، ولكي يظفر بالخلود مثل القادة الذين بنوا أسواراً عظيمة. ولكن، أي خلود يمكن تحقيقه بجدار طوله، بعد الخصم والتنزيلات التي اقتضتها الظروف، ستمائة كيلومتر لا غير! وأين يصنف شارون نفسه إذا ما قورن بقادة الصين الذين بنوا سوراً طوله سبعة آلاف كيلومتر! لذلك، وتحت تأثير هذه الفضيحة المتوقعة في أروقة التاريخ، نشرت إحدى الصحف العبرية نداء لشارون أرسله أحد السياسيين المتعصبين، يقترح فيه عليه أن يمد الجدار حتى قطاع غزة، ومن ثم يمتد به إلى شمال إفريقيا وصولاً إلى ساحل العاج أو جنوب إفريقيا! وثمة نداء لسياسي آخر يقترح فيه على شارون أن يبني الجدار على شكل الأكورديون، بحيث يتربع فوق كل الأراضي المخصصة للدولة الفلسطينية، وبذلك يجد العالم نفسه أمام عجيبة جديدة تضاف إلى عجائب الدنيا السبع، إذ بدلاً من جدار في دولة، ستقوم دولة في جدار! وحينما يصاب الفلسطينيون بالضجر، يمكنهم العزف على الأكورديون المكرس لمحاصرتهم، إلى أن تهدأ نفوسهم!)

قطعت هيلدا على رأفت تأملاته حينما أعلنت عن استراحة إعلانية.

هذه المرة جاء المعلنون بأنفسهم ومعهم بضائعهم. جاء بائعو النسكافيه والشوكولاتة وعصير الأناناس والبسكويت والعطور ومعجون الأسنان وكريم الشعر ودهون البشرة والحقائب الجلدية والأحذية والفساتين والحفّاظات. سوق تجاري كبير انعقد قرب الجدار! مهرجان من الأنوار المشعة ومن السلع المتنوعة المستوردة من عواصم أجنبية مختلفة! اندلعت نداءات الباعة في الفضاء المحدود، أظهر الباعة كرماً بالغاً تقديراً لأخوتهم الفلسطينيين واستيعاباً لظروفهم، خفضوا أسعار بضائعهم إلى النصف، وأبدوا استعداداً للبيع بالتقسيط المريح. قدر الفلسطينيون هذه اللفتات الطيبة ولم يثر استغرابهم سوى بائع الحفّاظات، ليس لأنه جاء يبيع الحفاظات في سهرة لا يوجد فيها أطفال رُضَّع، بل لأنه جاء يبيع حفّاظات للكبار! سأله بعض الزبائن تفسيراً لذلك، قال بلسان لا تعوزه الفصاحة: بسبب هذا الوضع! سلامة فهمكم! (فعلاً، الرجل محق في كلامه، لأنه وضع بيخرّي!)

ارتفع صوت هيلدا المصقول من جديد. قدّمت نانسي عجرم في عدد من أغانيها، وصاحبها في الغناء محمد خلاوي وبشار الشطي، ثم ظهر المطرب عصام كاريكا وغنى أغنية: الواد دا أيه؟ شانكوتي! غضب رأفت من هذه الأغنية، اعتقد أن عصام كاريكا يقصد التعريض به، حاول أن يرفع صوته محتجاً، صوته لم يخرج من حلقه، وعجب لذلك أشد العجب! نادى هيلدا لعلها تسمعه، هيلدا لم تسمعه ولم تنتبه إليه. اعتقد أنه يتعرض لمؤامرة، لأن هيلدا أجلسته أمام الجمهور ولم تعد تكترث له، بل لم تتح له حتى الآن فرصة لكي يغني! ما هذا؟ مؤامرة بالتأكيد! لحرمانه من كسب ود الأمّورة بهاء!

يبدو أن هيلدا حدست بما يفكر فيه رأفت. اقتربت منه مبتسمة، أنيقة أناقة لا تُضاهى وقالت: رأفت! كيف؟ مبسوط معنا! ما هيك؟ فوجئ رأفت بعجزه عن الكلام! ضغط على شفتيه فلم يخرج صوته إلى حيز العلن. ابتعدت عنه هيلدا، وجد نفسه ينهض ويلحق بها قائلاً: أنا هنا يا هيلدا، هل جاء دوري في الغناء؟ قالت هيلدا موجهة كلامها للجمهور دون إبطاء: والآن مع الفلسطيني الرائع رأفت حسين! صفق الجمهور لرأفت الذي تهيأ للغناء، قال: سأغني لمارسيل خليفة! صفق الجمهور لدى سماعه اسم مارسيل. غنى بصوت شديد الصفاء:

صامدون هنا صامدون
خلف هذا الجدار اللئيم

ردد الجمهور الأغنية بصوت جماعي هادر، تحشرج صوت رأفت من جديد ولم يعد قادراً على الاستمرار في الغناء. تدخل الجمهور في اللحظة المناسبة، أكمل الأغنية، وقف رأفت أمام الجمهور مثل المسطول، ولم يخرجه من أزمته سوى بهاء التي ركضت نحوه وعانقته بعاطفة صادقة وانفعال، (الشيخ علي استغفر الله مرات عديدة بسبب هذه المعانقة) حذا حذوها محمد خلاوي، محمد عطية، وبشار الشطي. قالت له هيلدا مشجعة: شكراً لك يا رأفت، ستقوم بمحاولة أخرى في ما بعد، ثم أعلنت عن فرقة راقصة، دخلت الفرقة بأبهة واعتداد. راح الراقصون يخبطون الأرض بأقدامهم وكذلك فعلت الراقصات، تطايرت الفساتين الناعمة الفضفاضة من على أجسادهن، غضّ الشيخ علي بصره. وصلت حمّى الرقص إلى جنود الاحتلال، اقتربوا من الجمهور أكثر مما ينبغي وراحوا يتمايلون طرباً، ولولا خوفهم من رصد الفضائيات لهم لتوغلوا في الساحة ورقصوا مع الراقصات! غير أنهم اكتفوا بهز أجسادهم على تخوم الساحة وحسب! غنى طلاب الأكاديمية وغنى معهم الجمهور: زيِّنوا الساحة والساحة لينا! ولم يعد الشيخ علي السمهوني قادراً على الاحتمال، صاح: ملعون هذا الجدار، ملعون أنت يا شارون! ولم يتوان الجمهور عن الرد: ملعون هذا الجدار، ملعون أنت يا شارون! رمى الشيخ علي حجراً نحو الجنود، تبعه الكثيرون من الشبان الذين قذفوا الجنود بالحجارة في الحال.

انتبه جنود الاحتلال إلى أن ثمة أمراً جللاً يحدث أمام أعينهم. الساحة اضطربت والجنود أطلقوا النار في الهواء، ولما ازداد قذف الحجارة نحوهم أطلقوا النار على الناس، جرحوا عشرين شاباً وشابة، ثم قتلوا بهاء، قتلوا النجمة الواعدة! شاهد ملايين المتفرجين العرب، الجريمة النكراء على شاشات التلفاز. نهض عدد كبير منهم ونزلوا إلى الشوارع، هتفوا بأصوات هائجة مزلزلة، ولم يتوقفوا عن التظاهر إلا بعد ثلاثة أيام!

سيذهب رأفت بعد هذه السهرة بأسبوع واحد، إلى المشاركة في مظاهرة احتجاج ضد الجدار، يقتله الجنود، يصوره مصورو الفضائيات، تظهر صورته وهو مقتول على ملايين الشاشات الصغيرة، لا تخرج مظاهرة واحدة، احتجاجاً على قتله، لأنه ليس الوحيد الذي قُتل من الفلسطينيين. وعلى أية حال، من هو رأفت حسين هذا؟ إنه اسم لا ظلال له! ولأن القتل هنا أصبح مشهداً يومياً، فيبدو أنه لا بد من تنويع ما على المشهد لتخليصه من الرتابة، مثلاً: لو أن سلطات الاحتلال سمحت لرأفت بالسفر إلى بيروت للمشاركة مدة أربعة أشهر في برنامج ستار أكاديمي، لأصبح نجماً متألقاً على امتداد الوطن العربي، فلا يضيع اسمه بين الأسماء حين يقتله الجنود!

آخ! لو! لو! لو!

2004

صوف

النعاج في المرعى، يرعاها البدوي ومعه حماره وكلبه. الحمار ينهق بين الحين والآخر دون سبب مقنع، فيبدو كمن يمارس خروجاً فظاً على نص البرية التي تتمدد في استرخاء تحت شمس الظهيرة الحارقة. الكلب يعرف الأصول خير معرفة، ينزوي بالقرب من صخرة وينام، ينام على نحو مفرط في النوم، وبما يوحي بأن الأمن مستتب تماماً، ربما لأن المدى مكشوف، فلا خوف من مداهمة الذئاب للقطيع على حين غرة، وربما لأن القطيع هاجع في السهل الآن، فلا خوف عليه من الضلال في الشعاب البعيدة. الكلب ينام على جانبه الأيمن، ماطّاً رقبته إلى أقصى حد ممكن، تاركاً لذنبه فرصة الانتشار دون محاذير، والبدوي يشرب الحليب من وعاء قديم، يستغرق في أحلام يقظته التي تتمحور غالباً حول الذئاب.

الحمار يخرج على النص مرة أخيرة ثم يصمت كما لو أن ندماً مفاجئاً أصابه، والبدوي يتأمل كلبه النائم، يغبطه على ما هو فيه من دعة واطمئنان، والمرأة تغزل الصوف بمغزلها اليدوي، تدحرجه على فخذها العاري، الذي تداعبه نسمات الريح القادمة من رؤوس الجبال، كما لو أنها تحمل معها رسائل خفية مكتومة.

البدوي ينام مثل طفل على إيقاع الحليب، وبائع الحلوى الذي اعتاد أن يزور المضارب مرة كل شهر، يقترب من المرأة التي تغزل الصوف، المرأة تسحب ثوبها إلى أسفل بحركة سريعة من يدها، لأنها لا تريد لبياض الفخذ أن يظل معروضاً أمام البائع، والبائع الذي رأى ارتباكاً لذيذاً في عيني المرأة، يعرض عليها أصنافاً من الحلوى، المرأة تضع المغزل في حضنها، تبدو حائرة أي صنف من الحلوى تختار. البائع مستثار، والكلب ينهض مجفلاً من نومه، ينبح في فزع، كما لو أنه يشم رائحة ذئب قريب.

2003

حيرة

الصباح رمادي، وثمة غيوم متجهمة في السماء، وبرودة خفيفة تتسلل إلى أجساد المارة، والبنت التي افترقت عن حبيبها بعد خصومة مريرة، ترنو عبر زجاج السيارة إلى طالبات المدارس السائرات فوق الأرصفة، تغبطهن على الابتسامات البريئة التي ترتسم على وجوههن، تشعر أن غصة تنمو في داخلها بعد اكتشافها أن ذلك الولد كان يلعب معها لعبة خبيثة منفرة.

البنت تتمنى لو أنها لم تدخل في التجربة المرة. في البداية، بدت التجربة بالغة العذوبة، والبنت الآن لا تعرف كيف تستعيد ابتسامتها البريئة، والكاتب الجالس إلى جوارها يبحث عن حبكة لكي يكتب قصته، والكهل النحيف يرقب المشهد بحذر، يتظاهر بأنه لا يلاحظ شيئاً. الكاتب يتشمم بأنفه مثل كلب جائع، والبنت تبدو كأنها على وشك أن تقول: ما علاقة الكاتب بشؤوني الشخصية! الكاتب يبدو كمن يريد القول: القصص ملقاة على قارعة الطريق، وأنا لا أتطفل على أحد.

البنت تهبط من السيارة، يفسح لها الكهل في المكان كي تمر من جواره، يصطدم نهدها المشرئب بذراعه، لم تأبه للأمر لأنه في عمر والدها، الكهل أيضاً تظاهر بأنه لم يأبه للأمر بالرغم من تيار الكهرباء الذي هز بدنه، الكهل لا ينكر أنه أصبح مشغولاً بحكاية الأعمار منذ أن شارف على الخمسين. لذلك، فقد خمن أن الكاتب أكبر من البنت بعشر سنوات على الأكثر، وأصغر منه بعشرين عاماً على الأقل. الكاتب يهبط من السيارة هو الآخر، أثار فضول الكهل بفعلته، بل إنه أثار حفيظته، لأنه لم يتوقع منه أن ينزل من السيارة في هذا الموقع بالذات، ربما لاعتقاده أنه يعمل مدرساً في المدرسة التي لم تصلها السيارة بعد، ولاعتقاده أنه لن يكون جريئاً ومبادراً إلى هذا الحد. الكاتب يتوقف قرب البنت فوق الرصيف، كما لو أنه يبحث عن نهاية لقصته، ولكن من قال إنه معني بكتابة قصة في مثل هذا الصباح!

الكاتب يبتسم للبنت، والبنت تبدو مندهشة بعض الشيء، الكاتب يقول كلاماً ما، والبنت تصغي بانتباه، ولا تتفوه بأية كلمة، الكاتب يقبض على يدها، والبنت تبدو مترددة، لا تدري هل تبقي يدها في يده، أم تحررها من قبضته! تسحب يدها في اللحظة الأخيرة دون استفزاز، والسيارة التي تقل الكهل تبتعد الآن.

يمضيان، كتفها ملاصق لكتفه، ويداهما متقاربتان، والكهل يسأل نفسه بعد أن غيبه المنعطف: هل كان ثمة كاتب مع البنت فعلاً؟ ثم لا يلبث أن يتساءل من جديد: هل كان ثمة بنت أصلاً؟

لكنهما، في تلك اللحظة، كانا يواصلان سيرهما المتئد فوق بلاط الرصيف، ولا يكترثان لأحد.

2003

رقص

وصلوا إلى المكان المخصص لهم في الطرف القصي من المدينة الكبيرة. وصلوا من كل جهات الأرض، وعلى مقربة من البحر أقاموا. كانت اجتماعاتهم الطويلة مكرسة لقضية واحدة دون غيرها (ما يدفع إلى الملل في بعض الأحيان)، وحينما يستبد بهم التعب، يغادرون القاعة الفسيحة، يقتربون من الأمواج التي تتلاشى عند رمل الشاطئ، يتأملونها كما لو أنها تحمل رسائل غامضة من شاطئ بعيد يحفظه آباؤهم عن ظهر قلب.

في اليوم الأول تحدثوا عن مشاق السفر، عن المطارات ورجال الأمن، عن الدول الصديقة والدول غير الصديقة. في اليوم الثاني تبادلوا الذكريات، أكثروا من سرد القصص التي تدور حول التين والزيتون والعنب. في اليوم الثالث أطال الرجل القادم من المدينة الوادعة النظر إلى المرأة التي انفصل عنها حديثاً. كان يحاول وصل ما انقطع، لأنه يشعر بالحاجة إلى امرأة في مثل هذا الطقس الممل الثقيل. أدركت المرأة القادمة من المدينة الوادعة، ما يعتمل في نفس الرجل، فقد جربت ذلك في ليالي سهاده الطويلة، كان يلذ لها جنونه المنفلت من كل عقال، لم تتذمر من نظراته النهمة، كما لو أنه يراها للمرة الأولى.

في اليوم الرابع احتدم الخلاف بينهم، تناثر الكلام حتى اختلط رذاذه برذاذ الماء على شاطئ البحر القريب، كان السبب عائداً إلى بحر بعيد في الأذهان. (في حمى الخلاف، تعطل الاجتماع، وجد الشعراء المغمورون فرصتهم المنشودة لإلقاء أشعارهم غير الطازجة على أناس يتثاءبون من شدة البطالة والإهمال غير المقصود الذي وجدوا أنفسهم فيه).

في اليوم الخامس يعاني كبيرهم الذي لم يعلمهم السحر (أصبحوا واقعيين، فما حاجتهم للسحر إذن!) من إرهاق مفاجئ، سببه السهر المضني من أجل العثور على صيغة يقبل بها القادمون من كل أطراف الأرض، (لا ننسى بطبيعة الحال ذلك الذي ينام الآن مع مطلقته في غرفة الفندق بعيداً عن صخب المجتمعين، منوهاً بين الحين والآخر وهو يلثم شحمة أذنها الطرية، إلى أنه كلما توغل في متاهات جسدها اكتشف أسراراً ما كان على علم بها من قبل، تزداد تألقاً في لعبة كشف الأسرار، تغتنم الفرصة المواتية للحصول منه على تنازلات ما كان يمكنها إحرازها في غير هذا الموقع) ينقلونه إلى قسم الإنعاش في المستشفى، ولا يعود المجتمعون إلى مواصلة أعمالهم إلا بعد أن اطمأنوا إلى أنه اجتاز مرحلة الخطر، وهو الآن يتماثل للشفاء وسط عناية مشددة يمارسها في الليل والنهار أطباء مهرة وممرضات ماهرات.

في اليوم السادس تبادلوا العناوين التي تساعدهم على تحمل المنافي البعيدة.

في اليوم السابع توصلوا إلى اتفاق حول الهدف الذي اجتمعوا من أجله. تجمهروا في الصالة التي لا يفصلها عن البحر سوى شارع وعشب على منحدر ورمل على شاطئ نحيل. نصبوا حلقة للرقص كأنهم في واحدة من القرى النائية التي شهدت ليالي مراهقتهم الشرسة، توجهوا بالنداء إلى زوجة القائد الذي لم يقتل بعد كي تشاركهم رقصهم، (هذه إضافة جديدة لم تشهدها سهرات الأعراس في تلك القرى)، (بطبيعة الحال، فإن للمنفى أحكامه وسننه).

تتقدم الزوجة إلى مكان الصدارة في أول حلقة الرقص، ترفع ساقها بتؤدة ووقار، يهتز الجسد الرصين، يندلع الرقص كأنهم جميعاً في مهرجان. تتوقف الزوجة عن الرقص بعد أن أطلقت شرارته الأولى، تبتعد نحو الركن الذي يقف فيه (ضاد) واجماً مشدوهاً، متسائلاً بينه وبين نفسه: إلى أين تمضي بنا السفينة؟ (ما دام البحر قريباً فلا بد من سفن، ولو في الخيال) تبكي زوجة القائد بصمت، يقف الرجل الذي تصالح مع مطلقته مهموماً مفكراً في خطة للتملص منها، بعد أن التقى قبيل هذا المساء في ردهة الفندق، بامرأة قابلة لكل الاحتمالات، ولا يلبث (ضاد) بعد أن استحال مشهد الرقص إلى فولكلور معاد، أن يغادر الصالة متجهاً إلى البحر، يستحم في الموقع الخطر رغم التحذيرات التي تشير إلى ذلك، ثم يعود إلى الفندق الذي يشبه المتاهة، فلا يصل إلى غرفته الشبيهة بآلاف الغرف، إلا بعد الفجر بقليل.

2003



ضريح

تتوقف الحافلة بين الحين والآخر، ينزلون منها لشراء بعض التذكارات، أو للتفرج على قرد يؤدي حركات بهلوانية، أو أفعى تتمايل على أنغام مزمار، وثمة نساء وأطفال يتسولون بضراعة لعل هؤلاء الغرباء يتصدقون عليهم بشيء ما.

جاءوا من مختلف أنحاء المعمورة لحضور المؤتمر. بعضهم يعلن في لهجة ظافرة أنه كان محظوظاً حينما وقع عليه الاختيار للسفر، فهذه البلاد تستحق أن يزورها المرء، ولو مرة واحدة في العمر. هذا على الأقل هو رأي المرأة البلغارية التي لم تتجاوز الثلاثين من عمرها. قالت للرجل الذي لم يتجاوز الأربعين من عمره القادم من الساحل الكنعاني، إنها سعيدة لأنها ترى الآن بأم عينها البلاد التي ترعرعت فيها حضارة قدمت للبشرية الشيء الكثير. يتفق معها الرجل في كل ما تقول، ثم يمعن، في لحظات صمتها، في تأمل جمالها وهي ترفل في زيها الباكستاني ذي اللون الوردي. يسألها، بعد وقت، عما إذا كانت قد تأقلمت مع الحضارة الأخرى التي تعيش الآن في أحضانها، تجيبه أنها قطعت شوطاً معقولاً على طريق التأقلم، وهي تفعل ذلك تعبيراً عن حبها لزوجها، الذي عرفته على مقاعد الدراسة الجامعية، حينما جاء إلى بلدها في بعثة دراسية.

إنها امرأة رشيقة ناعمة، وهي تبدو قانعة بحياتها، ما ضاعف من فضوله نحوها. قالت له رداً على أحد أسئلته، إنها لم تعد تحب أن ترتدي بنطال الجينز، وهي تفضل عليه السروال الباكستاني المصنوع من أقمشة خفيفة لا تضغط على الجسد. تقول ذلك، وهي تجلس إلى جواره في الحافلة، وتتصرف بعفوية وبراءة، تتبادل معه بعض التعليقات على المشاهد التي تظهر من شباك الحافلة، ثم لا تلبث أن تختفي. تشي رقة صوتها بتمازج حي لأكثر من حضارة في داخلها. راق له في إحدى اللحظات أن يدني رأسه من صدرها، ليستمع إلى وجيب قلبها. خشي من التباس المعاني والمفاهيم، ظلت رغبته محتبسة في صدره، ما جعله مغتبطاً حيناً لمجرد وجودها إلى جواره، متخوفاً حيناً آخر من أي سوء فهم قد يفسد كل شيء بينهما.

تتوقف الحافلة أمام المبنى الأعجوبة الذي نجا من دمار الحروب، تمشي أمامه بكل وداعة، حقيبتها الجلدية تتدلى من كتفها الأيمن، صندلها الخفيف ينم عن قدمين صغيرتين. انهمكت مثل بقية أفراد الفوج في تأمل التفاصيل الدقيقة التي يتشكل منها المبنى. يتحدث الدليل عن ألوف العمال الذين ظلوا يعملون في هذا المكان طوال اثنين وعشرين عاماً حتى أنجزوه. اقتربت منه، قالت في همس محبب: كم كان هذا الرجل مخلصاً لزوجته! أضافت: زوجي ينتمي للحضارة نفسها التي أنتجت هذا الأثر النفيس. اقترب منها، كادت شفتاه تلامسان شحمة أذنها، قال بصوت خافت: بعد موتها انغمس في العربدة والمجون. علقت في حياد، كما لو أنها لم تفاجأ بما قال: سمة كانت ملازمة للكثيرين من حكام ذلك الزمان. سألها في فضول: هل تغفرينها لهم؟ قالت: لا، ولكن... توقع منها أن تتم جملتها، غير أنها لم تفعل. قالت إنها تشعر بالتعب.

تجلس على حافة سور واطئ، يجلس إلى جوارها. سروالها الوردي ينحسر قليلاً عن أسفل ساقيها اللذين ينبت عليهما زغب خفيف. الدليل يأخذ الفوج إلى أبعد نقطة في المبنى – الضريح، وهي تواصل ثرثرتها العذبة، يستمع إليها بشغف، وهي تتحدث بين الحين والآخر عن زوجها، كما لو أنه يجلس معهما هنا فوق هذا السور الواطئ، ليس بعيداً عن ضريح المرأة التي أحبها زوجها بالرغم من نزواته الكثيرة، التي لم تكن تعد ولا تحصى، مع الأسف الشديد.

تنهض، تبتعد عن المبنى الضريح، تدرج مثل حمامة فوق الطريق المبلط وهي محاطة عن يمينها وعن شمالها برجلين.

2003

الحفلة

ذهبتُ إلى الحفلة في الموعد المحدد، ذهب إلى الحفلة في الموعد نفسه تقريباً. ارتديت معطفي الثقيل، خبرتي بالطقس في مثل هذا الوقت من السنة هي التي دفعتني إلى ذلك. القاعة في مركز المدينة، وبيتي بعيد عن مركز المدينة.

جاء رئيس البلدية إلى الحفلة، له ابتسامة خافتة لا تفارق محياه، جاءت زوجته ترتدي معطفاً من جوخ، وعلى خديها أصباغ فاقعة. جاء رجال الصحافة ومحطات التلفزة، اتخذوا لأنفسهم مواقع ملائمة. كل منهم يحلم بفرصة تلفت إليه الانتباه. اتخذتُ لنفسي موقعاً يجعلني قادراً على مغادرة الحفلة في الوقت المناسب، أنا لا أحب أن أصرف وقتاً كثيراً على الحفلات.

جاء رجالات المجتمع، كل منهم له حلمه الخاص. جاءت النسوة المتمرسات على حضور المناسبات الاجتماعية، كل منهن لها عطرها الخاص. رحت أبحث عن امرأة عرفتها منذ زمن ثم ضيعتها، هي وديعة مثل حمامة، لا تحب أن تلفت انتباه أحد، لذلك مال قلبي إليها. راح يبحث عن أية امرأة، يشم مثل كلب عطور النساء، يتقرب إليهن بمجاملات باهتة، وكلام سقيم يتردد في العادة على وتيرة واحدة في أجواء الحفلات. ذلك هو طبعه باستمرار: ذات ليلة، دخلت المطعم الرئيس في المدينة، كنت وحدي. ذات ليلة دخل المطعم الرئيس في المدينة، كان وحده. رأيت رجالاً موسرين يحتفلون لسبب ما، معهم على المائدة نسوة مبتهجات، يغنون بفجاجة، يغنين معهم بأصوات ناعسة، يستبد الطرب بإحدى النساء، تدفع الكرسي إلى الخلف، تقف باسترخاء، تهز ردفيها ذات اليمين وذات الشمال، تصيح بجذل: مارسيدس! يرد عليها الآخرون وقد تعتعهم السكر: مارسيدس! اعتقدت للوهلة الأولى أن المرأة تعمل في وكالة لهذا النوع من السيارات، وهي راغبة في خلط الجد بالمزاح. لكنها لا تلبث أن تصيح كأنها تفاجئ الجميع: ميتسوبيشي! يرد عليها الآخرون وهم يتأملون جسدها: ميتسوبيشي! حتى لم تُبق على نوع من أنواع السيارات شرقاً أو غرباً إلا ذكرته. أيقنت أن الأمر لا يعدو كونه مزاحاً هابطاً مُسفّاً، لم يرق لي جو المطعم في تلك الليلة فخرجت. راق له جو المطعم في تلك الليلة، سمعته يردد في نشوة: مارسيدس، ميتسوبيشي، (والقائمة تطول بطبيعة الحال).

أُلقيتْ في الحفلة كلمات مكررة، دون التفات إلى ضرورة التقيد بالوقت. وزعت كؤوس العصير وقطع الحلوى. لم يكن ممكناً توزيع مشروبات كحولية لأسباب عديدة، مع ذلك، وُضعت في المطبخ عدة زجاجات من الخمر، انزلق إليها عدد من المدعوين دون أن يلفتوا انتباه أحد، أضافوا إلى كؤوس العصير ما شاءوا من خمر، ثم عادوا إلى القاعة، لمواصلة النقاش حول شتى الموضوعات، مع عدد من المعنيين، وغير بعيد عن النسوة اللواتي وقفن في الجوار.

لم أعثر على المرأة التي ضيعتها، بدأ التبرم يظهر على سحنتي. رأيته مع عدد آخر من الرجال والنساء يعودون من المطبخ، قهقهاتهم تعلو وتخفت دون حساب. برزت من بينهم امرأة، هزت ردفيها ثم صاحت: مارسيدس! صاحوا خلفها مرددين: مارسيدس!

غادرتُ القاعة. تمشيت في شوارع المدينة الخالية غير آبه بالطقس البارد. مررت للمرة العاشرة من أمام القاعة. رأيتهما يغادران المكان، يدها في يده وليس ثمة كلام. حدقت فيهما، سألت نفسي بارتباك: هل أنا هنا حيث أنا الآن، أم إنني هناك حيث يسيران. استبدت بي رغبة في المناكفة، صحت في هدأة الليل وأنا أقترب منهما: مارسيدس. حدقا في وجهي بكل استغراب، ثم واصلا سيرهما دون اكتراث. خجلت من نفسي. شعرت بفداحة الفقدان، ركضت في الاتجاه المعاكس، وكنت وحدي.

2003

الجراد

الجراد لم يصل بعد.

والأولاد لم يكفوا طوال ساعات ما بعد الظهر عن اللعب على أطراف الحقول، ركضوا هنا وهناك باندفاع، ركضت البنت خلفهم. إنها البنت الوحيدة بينهم، ولم تكن خائفة لأن أخاها يعتبر نفسه زعيم عصابة الأولاد.

شمّر أحدهم ثوبه وراح يبول دون سابق إنذار، (من قال إنه ينبغي على الولد أن يعلن النفير العام قبل أن يبول!). نظرت البنت نحو الولد في فضول، تلقت على الفور صفعة مؤلمة. تلمست خدها مذعورة وراحت تبكي، قال لها أخوها بلهجة آمرة:

– اذهبي إلى البيت، ولا تعودي إلى اللعب معنا.

ابتعدت البنت بخطوات متعثرة. لم يكترث لها الأولاد، وحينما لاحظوا أن عين الشمس أخذت تحتجب، صاحوا مهتاجين مستنفرين. رأوا كتلة من قتام، تدوّم في الأفق الغربي، الكتلة تتحرك هابطة نحو الحقول كأنها سحابة من غبار، الشمس تحتجب خلف الكتلة الضخمة، والنور يصبح شحيحاً كما لو أننا في مسرح خافت الأضواء. البنت تنسى الصفعة، تنسى أوامر أخيها، تنطلق خلف الأولاد، تدوس بقدميها الجراد.

حطّ الجراد فوق الحقول، راح يأكل الأخضر واليابس. خرج الناس بالعصي والفؤوس، خرجوا بكل ما في حوزتهم من وسائل للقتال. أشعلوا النيران لعل دخانها يطرد الجراد، والجراد لا يكف عن تحويل الحقول إلى أرض جرداء.

شعر الرجل الذي يسند قامته على عكازين، بالأسى.

أطلق واحدة من بنات أفكاره. غادرت رأسه في الحال، كانت بنتاً بضة النهدين، ناضجة الأنوثة ولها ردفان وافران. رآها الناس وهي تركض نحو الحقول في كامل فتنتها، توقفت عن الركض في الجهة التي يأتي منها الجراد. انضمت إلى الحشد الذي يقاوم الجراد، ظلت كذلك حتى أدركها التعب، جلست لكي تستريح، ظن الناس أنها ستغادر الحقول إلى بيتها، غير أنها نهضت، ربطت على خصرها شالاً وراحت ترقص باستغراق تام. التف من حولها عدد كبير من الرجال والنساء والأولاد، رقصوا بحذر أول الأمر، ثم اندفعوا يرقصون بشكل محموم.

لم يبتعد الجراد تماماً، ولم يتوقف الرقص.

قال الولد لأخته:

– هذا يكفي، عودي إلى البيت الآن.

قال الرجل الذي يسند قامته على عكازين للبنت:

– يكفي هذا، عودي لأنني أريد أن أنام.

لم يسمعه أحد وهو يوجه كلامه إليها، لم تتوقف عن الرقص ولم تأبه لأوامره. كرر القول:

– قلت لك عودي، أريد أن أنام.

لم تكترث له، أمعنت في الرقص، ولم تكتف بذلك، بل إنها خلعت فستانها، لأنه، كما قالت فيما بعد، أخذ يعيق حركة جسدها المشبوب. رقصت وهي في قميصها الداخلي كما لم ترقص من قبل، والرجل الذي يسند قامته على عكازين، مدّد العكازين بالقرب من بدنه النحيل، ونام.

عادت إليه قبيل الفجر بقليل. اقتربت منه وهو يغط في النوم، قرعت رأسه عدة مرات. استيقظ وهو مثل الملخوم، فقد كان، كما قال فيما بعد، مستغرقاً في حلم لذيذ. دخلت رأسه،أغلقت خلفها الباب، خلعت حذاءها باستهتار تام، قذفت به دون قصد نحو الركن المعتم، توجع الرجل قليلاً، (فالأمر يتعلق برأسه في نهاية المطاف) احتمل ذلك دون تذمر أو استنكاف. اتجهت البنت نحو الحمام، فتحت صنبور المياه، ظلت مسترخية في الحوض الأبيض اللماع، وهي تغني بصوت مغناج، ساعة كاملة،كما قال فيما بعد، بعض الجيران.

2003

ديمومة

مضيفات الرحلة الجوية الأخيرة، اللواتي هبطن إلى المدينة الصاخبة هذا المساء، غير آبهات لزخات المطر والضباب، ما إن دخلن صالة الليل التي اعتدن على ارتيادها، حتى انخرطن في الرقص دون أن يفكرن في مصائر المسافرين الذين غادروا الطائرة، وهن يقفن في وداعهم، وعلى ثغورهن ابتسامات رقيقة صقلتها يد المهنة المثابرة.

المضيفات البهيجات مثل ورود الحديقة، لن يعرفن إلى الأبد أن واحداً من مسافري الرحلة الأخيرة، قد قضى نحبه في حادث غامض بعد مغادرته الطائرة بساعتين اثنتين، أي فيما كانت المضيفات منهمكات في الرقص اللذيذ، استعداداً لبضع ساعات من النوم الهادئ، ثم الاستيقاظ صباحاً كالمعتاد، لتقديم القهوة الطازجة مع الابتسامات، لمسافرين جدد يجوبون هذا العالم من أقصاه إلى أقصاه.

1986

تفاصيل

تحدثه عن أفراد أسرتها واحداً واحداً وهو يصغي باهتمام. أمها التي ثكلت زوجها مصابة بالربو وبحساسية في الأنف، تعطس دون مناسبة في كل الأوقات. أختها الصغرى التي ودعت عامها الرابع عشر تقضي كل وقتها مع كتبها المدرسية، وتصلي لربها على نحو متقطع في بعض الأحيان. أخوها الذي يعمل تاجراً في سوق القماش أحب امرأة جاءته مرة للشراء، غير أن حبهما بعد أشهر مات. أختها التي تصغرها بأربع سنوات تدرس الفلسفة في جامعة بعيدة، وتحلم دوماً بفتى لا يخون، هكذا تكتب لها في رسائلها، وتتمنى أن تصبح كاتبة ذات شأن.

تحدثه عن كل التفاصيل، وتقول إنها حزينة لأن الأسرة لا تلتئم إلا نادراً على مائدة العشاء، ثم تطفر من عينيها الدموع وهي تتذكر أباها الذي مات قبل أن يشبع من الحياة.

ويفترقان، فيعتريه الهم لأن للمرأة التي تبوح له بكل شيء، قلباً قد ينفطر إذا ماتت الأم بغتة، أو رسبت الأخت الصغرى في الامتحان، أو وقعت البنت الأخرى التي تدرس الفلسفة في قبضة فتى خوّان.

1986

ديمومة

رحلة

ترتدي جورباً رخيصاً وتمضي.

منذ سنوات وهي تقطع الطريق نفسه مارة بقلب المدينة، حيث يتزاحم العمال في انتظار فرصة للعمل.

هذا الصباح، تنتابها برودة فاجعة، ظنت غير مرة أن ثمة دموعاً تتجمع في عينيها، تمرر إصبعها اليابسة فوق الجفنين فلا تعثر على شيء.

وتمضي، تهب ريح قاسية في الطرقات، يضطر العمال إلى رفع ياقات معاطفهم المهترئة، تحكم قبضة يدها فوق معطف باهت، كي لا تتسرب الريح إلى صدرها، إذ تكفيها البرودة التي تنمو في داخلها هذا الصباح.

وتمضي، لكن الجوربين ينزلقان فوق الساقين، تشفّ تجعداتهما الرخوة عن بؤس لا حدود له، تتوقف لحظة، تشد الجوربين إلى أعلى، ينظر إليها بعض المارة في إشفاق: إنها رحلة قاسية.

غير أنها تمضي إلى رغيف الخبز كعادتها منذ سنوات.

1986

خيبة

المرأة العانس لم تكن قد أخذت زينتها بعد، حينما اقتحم عليها البابَ موظفُ الفندق، ليخبرها أن الجهة المضيفة قد توقفت عن تسديد الفواتير.

المرأة العانس بكت، لأن موظف الفندق شاهد بأم عينيه طاقم أسنانها منقوعاً في كأس ماء، قرب سريرها، وهي لم تأخذ زينتها بعد.

1986



حياة

المرأة الحامل، التي بقيت على وجه الأرض صدفة بعد أن حصد السلاح النووي كل شيء، ولدت طفلاً وسيماً، غير أنه في اللحظة التالية لولادته، وقعت ذرة من الإشعاع النووي فوق أنفه الصغير، فاستطال الأنف إلى درجة مريعة، مما يضطر الأم كل صباح إلى قطع ثلاثة آلاف ياردة سيراً على الأقدام، للوصول إلى طرف الأنف القصي، كي تغسله بالماء والصابون، ثم تعود لترضع الطفل حليب الصباح.

1986

امرأة

المرأة التي أعدت له زاد السفر، وقفت بالباب تحبس دمعها حينما قال: ألقاك قبل أن يحل الخريف.

المرأة التي وقفت تودعه لم تزل واقفة وهو يقترب الآن من قمة الجبل.

الرجل الذي قال للمرأة ما قال، يرنو نحوها الآن وهي تقف بالباب عند السفح البعيد، يصلي في أعماقه كي تبارح المرأة الباب بعد أن يغيب.

يا إلهي! ها هو ذا الرجل يقطع بحوراً سبعة والمرأة ما زالت واقفة هناك بالباب.

1986

اختطاف

أحضرت الحصان إلى غرفتها، ثم قيدته من قوائمه وربطت عنقه إلى ساق السرير، وأمرته أن يكف عن الصهيل كي لا يستيقظ الجيران، فتجأر حناجرهم بالصياح والغضب، أو تذهب بهم الظنون حد اتهامها بإحضار كائنات غريبة إلى غرفتها بعد انقطاع السابلة، وانطفاء الأضواء.

أذعن الحصان لرغبتها كما اعتقدت، ثم نامت مطمئنة فوق سريرها كما لم تنم منذ أجيال. استيقظت صباحاً فلم تجد أثراً للحصان ولا لسريرها الذي فرّ من تحتها تحت جنح الظلام.

حدث هذا لدهشتها البالغة، والباب ما زال موصداً من الداخل تماماً مثلما كان قبل أن ينام الحصان.

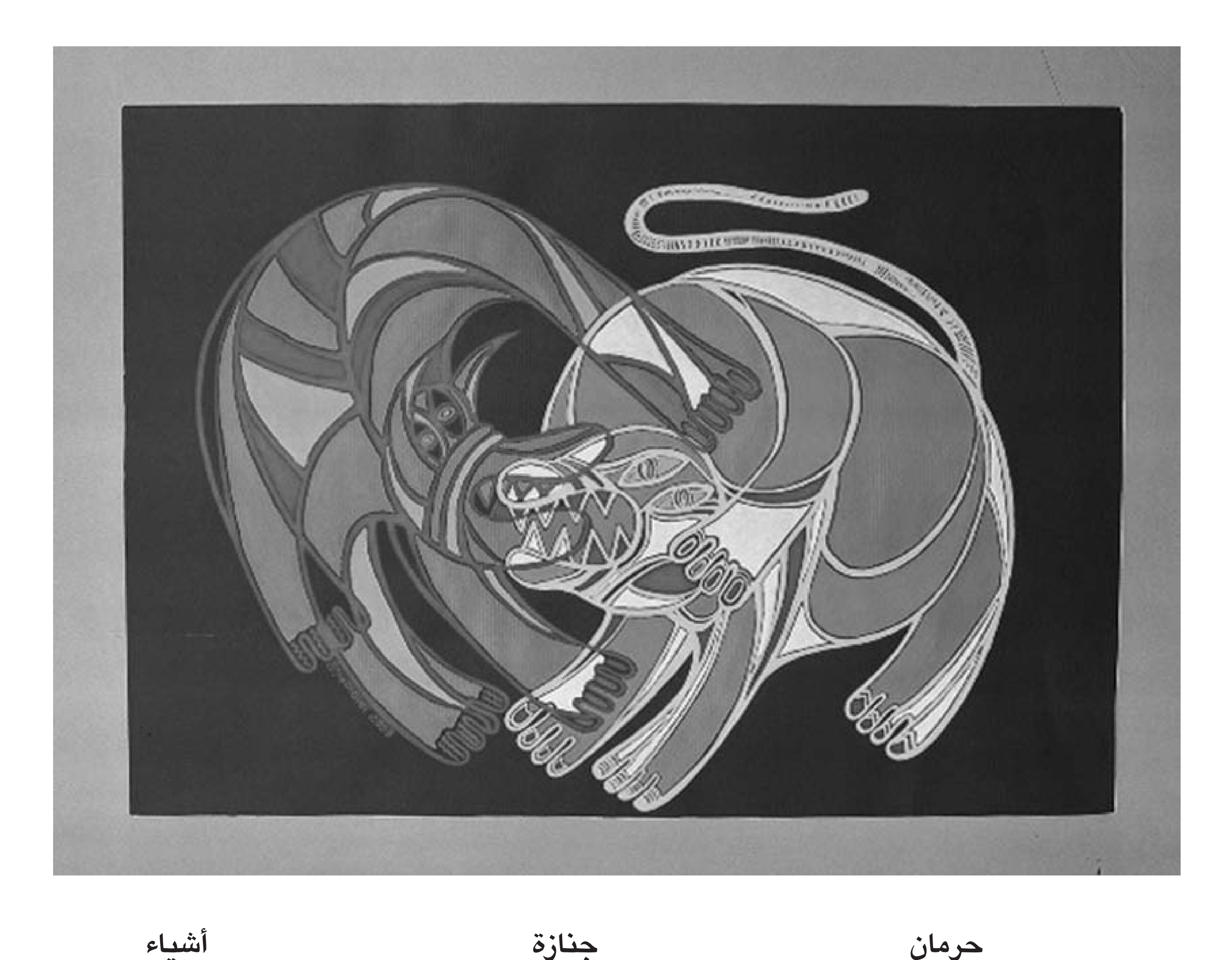
1986

حب

لم يقل لها مرة واحدة: أحبك، فهو يكتفي بالنظر في عينيها، وبين الحين والآخر يمد أصابعه بحنو يسوّي خصلات شعرها التي تبعثرها ريح المساء دون استئذان.

لم تقل له مرة واحدة: أحبك، فهي تكتفي بالسير صامتة إلى جواره، وفي الصباح التالي تأتي وحيدة تلملم آثار خطواتهما خوفاً من قسوة المارة، ثم تعود وعلى رأسها سلة كبيرة لا يدري أحد ماذا خبأت فيها.

1986



وحدة

بعد منتصف الليل بقليل، أيقظه لسع الهواء البارد، اتجه نحو النافذة وهو يؤنب نفسه، لأنه لم يفطن إلى إغلاقها قبل النوم.

عاد إلى سريره ثم توقف حينما انتبه إلى أن القطة ليست على السرير، ولا في ركن الغرفة أو تحت المائدة الهرمة.

اتجه نحو النافذة من جديد وانتظر، وحينما أدركه اليأس انزوى في سريره وهو يتمتم: كم مرة حذرتها من الخروج ليلاً! قال ذلك وهو يسعل، قاله وكأنه يقصد امرأة.

1986

حرمان

الطفل الذي صحا من نومه في الصباح المغبش، لم يشأ أن يوقظ أمه من نومها الثقيل. ها هو ذا يجلس قربها في السرير، يتأمل وجهها الساكن مثل صفحة الماء.

الطفل الذي صحا من نومه مبكراً جاع، مال نحو صدر الأم كي يخرج الثدي من تحت الرداء، غير أن يديه الطفلتين خابتا.

الطفل الرضيع ارتمى في حضن البكاء. تجمهر في البيت أناس جاءوا من كل الأنحاء. بكوا في البيت وقتاً، ثم حملوا أم الطفل إلى حيث لا يدري حتى الآن.

1986

جنازة

الكهل النحيف ذو العنق الطويلة المضحكة مات وهو يعتقد أنه عاش حياة صاخبة، لأنه منذ اشتغل ضارباً على الدف في الملهى الليلي، هزت أردافها على الدف تضربه يداه، سبع وأربعون راقصة، لكل واحدة منهن قصة لا يعلم أسرارها أحد سواه.

الكهل النحيف أيقن وهو يموت وحيداً في كوخه أن راقصات الملهى لن يتخلفن عن حضور جنازته، وقد يلطمن خدودهن – المليئة بالأصباغ – وجداً عليه.

الكهل النحيف مات والراقصات مستغرقات في قيلولة ما بعد الظهر، تأهباً لليلة طويلة من الرقص المحموم، فلم يشارك في جنازته سوى حارس المقبرة، واثنين من عابري السبيل، وأربعة من أهل البر، وكلب الحي البائس ذي الذنب المقطوع.

1986

أشياء

لم يبق من راتبها الضئيل شيء، اشترت كعادتها كل شهر أدوية للرجل الذي ينام في البيت منذ سنوات. اشترت مريولاً مدرسياً للبنت، وبنطالاً ترتديه البنت تحت المريول. اشترت حلوى ودفاتر للأولاد، وبما تبقى لديها من نقود، اشترت لأول مرة منذ سنوات، كحلاً لعينيها ومساحيق وعطوراً لها رائحة ما، من بائع أعمى يقعي خلف صندوقه الزجاجي فوق الرصيف.

1986

لغز

المرأة الشقية، دأبت منذ تسعة وعشرين يوماً على شطف درجات البناية ذات الطوابق الخمسة، وتنشيفها بالخرق البالية التي تحضرها معها من كوخها البعيد، قبل أن تطل عليها النسوة المتخمات من أبواب بيوتهن، بملابس النوم التي تشف عن أفخاذ متوقحة.

المرأة الشقية إياها، بارحت البناية في اليوم الثلاثين، بعد وصولها بدقائق معدودات، وقبل أن تستلم أجرها الشهري، كي لا تتهمها النسوة المتخمات بالسرقة، لأنها قبل أن تبدأ بشطف الدرج، أخذت تعده درجة درجة كما تفعل كل صباح، فإذا به – يا للمفاجأة – أربع وسبعون درجة بدلاً من خمس وسبعين.

1986

رحيل

تخرج من تحت الماء على صافرة السفينة وهي تهذي: لو أن المدينة بلا ميناء. ترتدي فستانها فوق اللحم على عجل، تركض في الشارع المليء بالأنقاض ودم الضحايا الذي جففته الشمس وهواء البحر المالح، فقد ذكرتها السفينة أن موعد رحيله القسري قد حان.

يركض مبتعداً عن الميناء، وسط دهشة المقاتلين وحزن النسوة في الشرفات، يركض وهو يهذي باسمها البريء، فقد جاء هذا الرحيل قبل الأوان.

تنوح صافرات السفن وهو مختبىء في ظل صدرها، تهديه خصلة من شعرها، ثم يتعاهدان على اللقاء بعد انتهاء الحروب.

ها هي ذي السفينة تمضي به فيما تنتظره حرب لا يدري بها، حرب ليست هي الأخيرة على أية حال.

1986

تماثيل

التماثيل المنصوبة على الجسر الكبير، استقالت من عملها في الساعة التي تغلق فيها المحلات التجارية أبوابها، ويعود الناس إلى بيوتهم متعبين.

الملك القديم خلع تاجه، نزل عن العرش، ومضى في الشارع مثل سائر خلق الله.

الغزالة تلفتت يسرة ويمنة، لتتأكد من خلو الشارع من الصيادين، وانطلقت فوراً إلى الغابة.

الرجل والمرأة اللذان كانا في عناق دائم، اتجها إلى موظف الاستقبال في بهو الفندق السياحي، وطلبا منه غرفة بأي ثمن.

الوحيد الذي بقي في مكانه، هو تمثال الأم التي ترضع طفلها، لأن الطفل نام، فلم تشأ أمه أن تعيد ثديها إلى داخل الثوب،كي لا ينزعج الطفل، ويستيقظ من رقاده اللذيذ.

2002

غبطة

ذلك الرجل، الذي يعمل مأموراً لمستودع الكتب، يقضي أغلب أيامه وسط أعداد كبيرة من الكتب، لكنه لا يقرأ كتاباً واحداً منها، يقول إنه رأى وسمع في حياته ما يغنيه عن القراءة، ويقول مبرراً كسله: ثمة كتب بائسة لا تستحق الاهتمام.

ذلك الرجل، يغتنم أيام العطل، للتنزه مع زوجته وأطفاله، ولتناول طعام الغداء تحت الأشجار. هناك، يتمدد على ظهره، يربت على بطنه من الشبع، يضع يده على كتف زوجته التي تجلس لصقه، يمررها بحنان على ظهرها، ويستمر في ذلك، إلى أن تستقر يده قرب عجيزتها، ولا يلبث أن ينام.

2002

حمَّام

صاحب الحمام القديم، تأتيه النسوة الشابات من كل أحياء المدينة، يدخلن حمامه مقابل بضعة دريهمات، يتعرين في حمامه، يشهقن تحت الماء المندلق من الحنفيات، يتصايحن بدلال، يتراشقن بالماء، يقطعن الممرات اللزجة وهن في كامل عريهن، تترجرج أجسادهن دون حرج، يتمددن فوق البلاط الساخن في استرخاء تام.

ينهضن بعد وقت، يرددن بعض أغنيات سمعنها من قبل في المذياع، يرتدين ملابسهن، يمشطن شعورهن، ثم يخرجن عائدات إلى بيوتهن باحتشام.

يحدث ذلك كله، وصاحب الحمام يجلس بتثاقل فوق كرسي من القش، يحتسي قهوته المرة، ويتبادل حديثاً باهتاً، مع بائع الصابون الذي لا يفارق مدخل الحمام منذ أعوام.

2002

عربات

عربات الترام المتجهة نحو المحطة الأخيرة في الحي البعيد، يصطك حديدها عند المنعطفات، فيصدر أصواتاً كالعويل.

تقف المرأة في الطابق السابع، تتأمل العربات في الليل الموحش، فلا ترى عبر نوافذها المضاءة سوى حفنة من الركاب الغامضين ، يعتريها إحساس بأن في هذا الكون خللاً ما.

يقف الرجل في الطابق السادس يتأمل العربات، ولا يعرف أن المرأة تشاطره الإحساس نفسه. يبكي الطفل في الطابق الأرضي، فلا تأتيه أمه كعادتها، لأنها في الحمام، تفرك جسدها بالماء الساخن والصابون، احتفاء بزوج لا يجيء.

والعربات في الخارج تنتظر الركاب، فلا يأتون في مثل هذا الوقت من الليل.

تعود إلى قلب المدينة يملؤها العويل.

2002

حافلة

الحافلة تسير.

تقطع السهول الفسيحة الغارقة في الظلمة.

تجتاز أراضي الهنود الحمر الذين لم يعد لهم أثر، بعد أن أبادهم المهاجرون الجدد.

أنظر إلى ركاب الحافلة، أتفحصهم في الضوء الشحيح المنبعث من سقف الحافلة، أتفحصهم كما لو أنني مسؤول الرحلة: بعضهم غارقون في النوم، وبعضهم يتناولون طعاماً خفيفاً أو فاكهة، والبنت التي في المقعد المجاور لي، تثرثر مع امرأة بدينة في المقعد الذي يلي مقعدها، تثرثر ثم تمعن في الضحك، وأنا أتأمل الركاب كما لو أننا أفراد عائلة واحدة تمضي في الظلمة الممتدة إلى غايات مختلفة.

البنت تكف عن الثرثرة مع المرأة البدينة ثم تنام.

يميل رأسها نحو كتفي، يستقر هناك دون استئذان، ينتشر شعرها على صدري وقريباً من وجهي، لكنني أحاذر من ملامسته، رغم رغبتي الخفية في ذلك، لأننا لسنا أفراد عائلة واحدة، ولأنني هندي أحمر على أية حال.

2002

سفر

البنت ترقب كل مساء قطار الساعة السادسة.

تتأمل المسافرين الذين يحدقون من خلف النوافذ، وفي نفسها توق إلى المسافات البعيدة.

الأب يعتني في المساء بالحديقة الصغيرة، ولا يرفع رأسه نحو القطار الذي يمر رتيباً.

الكلب يقعي قرب السياج، يطلق دون أن يتحرك من مكانه نباحاً متقطعاً للإيحاء بأن له دوراً يؤديه، ثم يصمت على نحو قابل لكل الاحتمالات.

البنت، ذات مساء، تركب القطار وتمضي بعيداً.

والأب، في إحدى الليالي، يموت تاركاً الكلب وحده في فناء الدار.

2002

تمساح

تمساح باهت الجلد، مسترخ تحت شمس الظهيرة، مرتاح لبلادته التي لا توصف، يرقب بسكينة ودعة، المرأة وهي تتعرى ببطء لذيذ. يرقب بالسكينة نفسها وبالدعة نفسها، الرجل وهو يتمسح بالمرأة التي تبدو مثل فريسة سهلة المنال.

التمساح وهو مسترخ تحت شمس الظهيرة، يذرف الدموع، شفقة على المرأة التي ركضت ضاحكة، مستثارة، نحو حافة الماء.

وهي لا تدري أنها تغوي تمساحين اثنين في وقت واحد.

2002

رمح

وهما يغادران غرفتهما في الطابق الحادي عشر نحو باب المصعد. قالت: أين تمضي بهذا الرمح؟ وقف حائراً وهو يعرف أنه لا يمكن إدخاله في المصعد. قالت: اتركه هنا! المدينة آمنة ولن تحتاج إليه. تركه عند باب المصعد، ولم يكن راغباً في ذلك. هبطا نحو المدينة. سارا على أرصفة تظللها الأشجار. لحقت بهما إحدى عاملات الفندق، قالت وهي تقترب منهما لاهثة: يا سيدي، هذا رمحك أحضرته لك.

حمل الرمح ومضى إلى جانبها، والناس من حولهما يخلعون قبعاتهم احتراماً لهما، ربما لاعتقادهم أنهما قادمان للتوّ، من القرن الخامس عشر.

2005

إجازة

يحدث أن يكون ماشياً إلى جوارها في المدينة، فتقول له بعد ساعتين أو ثلاث: أين ابتعدت عني؟ تركتني أمشي في المدينة وحدي، ولم تكن إلى جواري!

يحدث أن تكون ماشية إلى جواره، فيقول لها بعد ساعتين أو ثلاث: أين ابتعدتِ عني؟ ولم تكوني إلى جواري!

يحدث أن يكونا معاً في ردهة الفندق، فيقول لهما موظف الفندق: أين كنتما؟ منذ يومين أو ثلاثة أيام لم ألحظكما هنا!

ويحدث أن يكونا عائدين إلى الفندق بعد رحلة إلى التلال المحيطة بالمدينة، يبحثان عن الفندق فلا يعثران عليه. يقرآن بطاقة صغيرة تركها لهما في بقالة مجاورة، يقول فيها إنه كان مضطراً إلى المغادرة، لأن موعد إجازته قد حان.

2005

عربة

اختلفا على أشياء كثيرة، اختلفا على الأمكنة التي سيذهبان إليها معاً. قالت: أنت لا تثق في اختياراتي. قال: أثق فيها، ولكن! قالت: ولكن ماذا؟ لم يجب، وبقيا صامتين.

ركبا عربة من عربات القرون الوسطى، وقالت للحوذي: خذنا إلى القرن العاشر من فضلك.

2005

أظافر

تعلقتْ به بعد عدد من اللقاءات. قالت إنها لن تعود قادرة على العيش دون أن تراه. غادرها وهو يقول: هذا هو اللقاء الأخير. قالت وهي تصبغ أظافر قدميها بلون قرمزي: قلتَ ذلك في المرة السابقة.

2005

ثوب

رأيتها في المنام. ترقص حافية وهي في ثوب خفيف. الشرطيات والشرطيون، يتحلقون من حولها وهم يقذفون قبعاتهم في الفضاء. وهي ترقص وأنا أنهض من نومي. أراها واقفة فوق رأسي، تناولني بيدها اليسرى كأس ماء، وأنا لا أتناول الكأس من يدها، أعود إلى النوم لكي أراها وهي تستأنف الرقص في الثوب الخفيف.

2005

كرسي

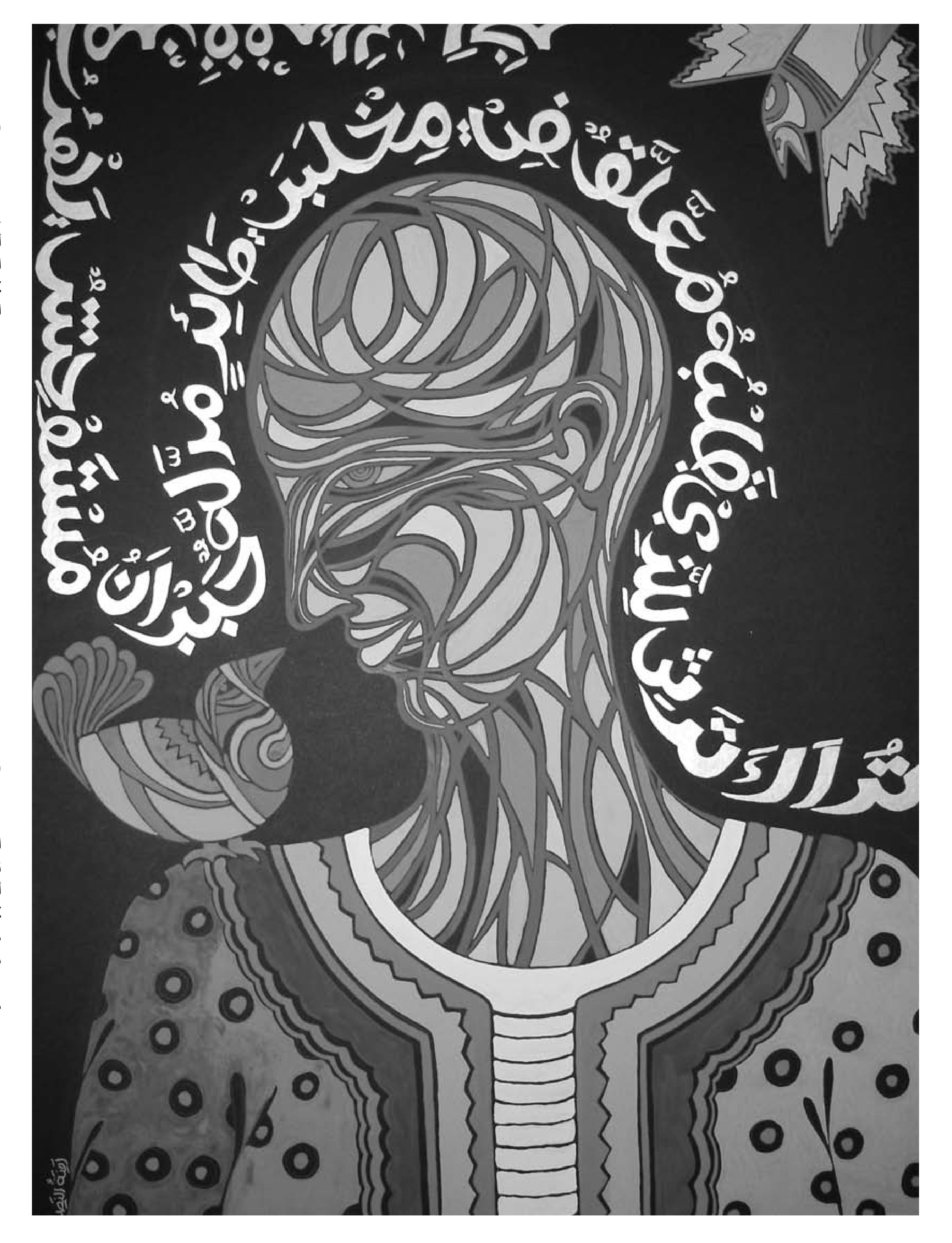
قالت: اجلس هنا على حافة السرير. قال: أجلسُ على الكرسي. ظلت واقفة مثل علامة تعجب! بدا الموقف مربكاً. ضلفة النافذة تصرفت بحنكة حينما انصفقت، وهيأت الفرصة لكلام كثير.

2005

هناك

استغرقوا في النوم. الرجال في غرفة والنساء في غرفة. الريح شديدة في الخارج، وثمة أحلام صغيرة تتجول في فضاء شحيح. قال الحارس: لم أنم حتى الصباح، مع أنني لم أكن هناك.

2005



فرس

وهما يقطعان الممر الطويل المفضي إلى غرفة الانتظار، قالت: حذائي يدق البلاط وأنا أشعر بالحرج. قال: أنت تتقمزين مثل فرس وهذا الصوت يروق لي. خلعت حذاءها وقالت: تتعبني كثرة المديح! مشت إلى جواره حافية، وصوت الحذاء يرنّ في الصمت بكل وضوح.

2005

فستان

اجتزت الغابة الصغيرة، وجلست على الطرف الأيسر للمقعد المخصص للمتنزهين. قالت المرأة الجالسة على الطرف الأيمن للمقعد: أنت تجلس على فستاني، ارفع جسمك قليلاً. كنت أجلس على خشب المقعد، والمسافة الفارغة بيني وبينها تزيد عن متر ونصف المتر، ومع ذلك، لم أشأ أن أعقّد الأمور بيننا.

أنا رفعت جسمي قليلاً، وهي في اللحظة نفسها راحت تسحب الفستان.

2005